اميانوس ماركيلينوس
في مصر

مصر في القرن الرابع

دكتور
وهيب كامل

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

أميانوس ماركيلينوس
في مصر

مصر في القرن الرابع

دكتور
وهيب كامل

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

المحتويات

دار الكتاب المصرى
٨٣ شارع القصر العينى ت ٢٦٥٨٨

أميانوس ماركيلينوس فى مصر

مقدمة

(١)
حياته

يعتبر أميانوس ماركيلينوس إماماً من أئمة التاريخ ، وهو ولا شك خاتم المؤرخين الرومانيين ، ولعله أكبر عبقرية تاريخية ظهرت فى الأدب الغربى فيما بين تاسيتوس ودانتى . كتب فى عصر يعد مفرق الطريق فى الحضارة الغربية ، يوم انقسمت الإمبراطورية أقساماً ، وتنافرت شيعاً وأحزاباً ، وراحت عوامل الاضمحلال تنخر فى جسمها ، فشلت الحركة الفكرية ، وأخمدت الروح الاجتماعية ، وقضت على آخر مظاهر الحكم الذاتى . وكما يعد أميانوس آخر المؤرخين الكلاسيكيين ، يعد فاتحة القرون الوسطى الغربية ، لا لما تفيض به صفحات كتابه من استشهادات واستطرادات فحسب ، بل لأنه لا يكتب من وحى نفسه وصدى تجاربه ، بل يستمد الوحى من الكتاب الأقدمين ، كما يستمد منهم الآراء والتعبيرات .

وإن عمدتنا فى سيرة أميانوس هو كتابه وما ورد فيه من

إشارات متفرقة إلى نفسه وإلى نواحى نشاطه المتعددة. ولد حوالى سنة ٣٣٠ فى أنطاكية من أعمال سوريا لعائلة يونانية طيبة [1] ولعله تلقى العلم، فيها فقد كانت أنطاكية يومئذ إحدى المدن الرئيسية فى الإمبراطورية، حتى أنها كانت تفوق الإسكندرية فى بعض النواحى، وكان أميانوس يجد شيئاً من الزهو لما تمتاز به من بحبوحة ورخاء.[2] ولكنه لم يكن راضياً كل الرضا عن مواطنيه فى أنطاكية فقد كانوا خليطاً متنافراً من اليونانيين واليهود والسوريين وغيرهم، ولعل العنصر الغالب كان العنصر اليونانى الذى احتفظ بالحياة العقلية صافية، وهيأ فرص التعليم للشبان فى المدارس، وقد أنجبت المدينة فى هذه الفترة من مشاهير الرجال إلى جانب المؤرخ أميانوس الفيلسوف ليبانيوس والخطيب يوحنا فم الذهب.

وامتدت حياة أميانوس فعاصر الأباطرة قسطنطيوس ويوليانوس ويوڤيانوس وڤالنتيانوس وڤالنس فى النصف الثانى من القرن الرابع بعد الميلاد. وكان انهزام ڤالنس فى موقعة أدريانوپل سنة ٣٧٨ نقطة التحول فى حياة الإمبراطورية. ومن هذا التاريخ تنقطع عنا أخبار أميانوس، فلا ندرى من ضروب نشاطه شيئاً إلا التوفر على تأليف كتابه.

(١) ١٩، ٨، ٦ و ٣١، ١٦، ٩
(٢) ١٤، ٨، ٨ و ١٤، ١، ٩

بدأ أميانوس حياته الحربية فى الحرس الوطنى الذى أحلته الإمبراطور قسطنطين محل الحرس الامبراطورى سنة ٣١٢ وكان يضم أبناء البيوتات وهذا دليل فى ذاته على كرم محتد أميانوس.

وفى سنة ٣٥٣ صدر له الأمر الإمبراطورى بالالتحاق بأركان حرب أورسيكينوس قائد عام الجيوش الإمبراطورية فى الشرق فالتحق به فى نصيبين [1] وذهب فى معيته إلى أنطاكية حيث عهد إلى أورسيكينوس بالتحقيق فى قضايا الخيانة العظمى.

وفى سنة ٣٥٤ تمكنت الوشايات والدسائس من أن تزعزع ثقة الإمبراطور فى قائده، فاستدعاه إلى ميلان [2]، وعهد إليه بقمع ثورة سيلڤانوس الذى نصب نفسه امبراطوراً فى كولونى [3] وظل أميانوس ملازماً لقائده فى بلاد الغال إلى سنة ٣٥٧ فعرف من مشكلاتها الاجتماعية ومواقعها الدفاعية، ما أتاح له أن يتحدث عن حروبها حديث العارف الخبير. ولعل التوفيق الذى حالف أورسيكينوس فى إخماد ثورة سيلڤانوس قد حدا بالإمبراطور إلى أن يعهد إليه بقيادة جيوش الشرق من جديد ليقف خطر الفرس الداهم [4]،

(١) ١٤، ٩، ١
(٢) ١٤، ١١، ٤ وما بعدها
(٣) ١٥، ٥، ٢١ وما بعدها
(٤) ١٦، ١٠، ٢١

فقفل راجعاً إلى الشرق يرافقه أميانوس ، فلما أعلن الفرس الحرب سنة ٣٥٩ لم يبلغ أورسيكينوس ميدان القتال إلا بعد أن كان الفرس قد غزوا بلاد ما بين النهرين فعلا [١] .

وصدرت الأوامر الإمبراطورية بتعيين سابينيانوس قائداً عاما لجيوش الشرق ، ولكن القائد الجديد لم يحرك ساكناً إزاء الهجوم الفارسى العنيف ، فاضطر أورسيكينوس إلى التوجه إلى نصيبين ليدرأ عنها غائلة الفرس [٢] ، لحصنها وغادرها إلى مدينة آمد ليحصن الطريق إلى نصيبين ، ولكنه ما أن غادر نصيبين حتى أوفد أميانوس إليها فى مهمة حربية [٣] ، فلما أنجز أميانوس هذه المهمة التى عهد بها إليه ، ورأى أن المدينة ستكون فريسة حصار مكين ، تركها ليلا ولحق بقائده وحذره من تقدم الجيش الفارسى الزاحف ، ورافقه فى تقهقره إلى آمد [٤] . ولما جاءت الأنباء بأن الجيش الفارسى قد عبر نهر الدجلة ، أُوفد أميانوس فى رحلة استكشافية ليستجلى الأمر ، فاعتلى متن صخرة منيعة واستشرف من فوقها الجيش الفارسى بقيادة سابور متقدما نحو معاقل الامبراطورية

---

(١) ١٦ ، ١٠ ، ٢١

(٢) ١٨ ، ٦ ، ٨

(٣) ١٨ ، ٦ ، ١٠ وما بعدها

(٤) ١٨ ، ٦ ، ١٢ وما بعدها و ١٨ ، ٦ ، ١٤ ومابعدها

الرومانية ، فرجع من فوره وأبلغ النبأ إلى قائده أورسيكينوس وذهب إلى آمد ، وسرعان ما امتد الحصار إلى آمد نفسها ، فقاومت مقاومة عنيدة ، ولكن ما لبثت أن وقعت فى يد الفرس ، فانفلت أميانوس هارباً منها فى جنح الليل ولاقى قائده فى متيلينى ورجعا سالمين إلى أنطاكية [١] . فلم يسع الامبراطور إلا أن يعفى أورسيكينوس من مهام منصبه سنة ٣٦٠ . ومن هذا التاريخ تنقطع عنا أخبار نشاط أميانوس الحربى ، وإذا جزمنا بأنه اضطلع بنصيب من حملة يوليانوس ضد الفرس سنة ٣٦٣ فإننا لا نعرف الدور الذى قام به فيها على وجه اليقين .

ولما مات يوليانوس ، واعتلى يوفيانوس العرش الامبراطورى سنة ٣٦٣ وانكفأ الجيش الرومانى راجعاً إلى أنطاكية ، يبدو أن أميانوس اعتكف فى مسقط رأسه ردحاً من الزمان . وليس لدينا من دليل على هذا الاستنتاج إلا وصفه لمحاكمات قضايا الخيانة العظمى التى دارت فى أنطاكية سنة ٣٧١ ، فهو وصف حى رائع لا يصدر إلا عن شاهد عيان [٢] . ولكن من المستبعد أن يقطع أميانوس حياته الحربية فى هذه السن المبكرة ، ولعله ظل متصلا

---

(١) ١٩ ، ٨ ، ٥ — ١٢ والقطعة كلها من أروع السرد التاريخى أسلوباً وتصويراً .

(٢) ٢٩ ، ١ ، ٢٤ وما بعدها

بالجيش يشغل فيه أحدى الوظائف التى لا تتطلب مغادرته أنطاكية إلى ميادين الحروب ، ولعله لم يركن نهائياً إلى حياة المدن ، ولم ينفض عنه غبار الحروب ومعاركها إلا بعد أن انهزم فالنس فى أدريانوبل سنة ٣٧٨ .

ومع ذلك فإن إقامة أميانوس فى مسقط رأسه لم تكن مستمرة غير متقطعة ، فقد زار فى أثنائها مصر [١] كما زار بلاد اليونان بعد الزلزال الهائل الذى هز أركانها فى ٦ يوليو سنة ٣٦٦ م . [٢] . ولعله انتهز فرصة خلوده إلى الاستقرار فى أنطاكية فتوفر على القراءة المتصلة والاطلاع الواسع تمهيداً لما يزمع كتابته من تاريخ .

والحق أن حياة أميانوس الحربية كانت قصيرة لم تتجاوز الخمسة عشر عاماً ، اكتسب خلالها خبرة واسعة بميادين الشرق والشمال ، إذ حارب فى ما بين النهرين كما حارب فى بلاد الغال وجرمانيا ، كما اكتسب خبرة فى فنون الحرب وشئون الادارة ، استعان بها كلها — إلى جانب اطلاعه الواسع — فى كتابة تاريخه

وبعد انجلاء الموقف بعد موقعة أدريانوبل ذهب أميانوس إلى روما عن طريق تراقيا ، مؤثراً الطريق البرى على الطريق البحرى السهل، حتى يتمكن من دراسة خطوط القتال وجمع المادة التاريخية .

(١) ١٧ ، ٤ ، ٦ و ٢٢ ، ١٥ ، ١
(٢) ٢٦ ، ١٠ ، ١٩

ولعل زيارته هذه لروما كانت حلماً من أحلام شبابه ، ما أن تخلص من أعباء الوظائف حتى سارع إلى تحقيقه ، فهو يبدى من الاعجاب بضخامة مبانيها ونبل آثارها ما ينم عن الاكبار والتعظيم . فهى عنده المدينة الخالدة [١] المعظمة، محور الامبراطورية وموئل الفضيلة . وإن فرط حبه لروما ليتجلى فى شدة كرهه لأعدائها ، فالبرابرة عنده هم الجرمان الذين يتهددون روما وهو يجيز فيهم الإبادة والاغتيال [٢] .

وأغلب الظن أنه استقر فى روما ، قبل سنة ٣٨٣ لأنه يتحدث فى مرارة وأسى عن القانون الذى صدر سنة ٣٨٣ بابعاد الأجانب لما يتهدد المدينة من مجاعة [٣] . وهذه المرارة فى التعبير حملت الكثيرين على الظن بأنه كان من ضمن من أبعدوا ، ولعله أسف للأجانب الذين أبعدوا ولم يكن هو من المبعدين ، لأن الوظيفة التى كان يشغلها فى الحرس الوطنى كانت تضفى على صاحبها لقب « صاحب الكمال » ولعلها شفعت له فلم يطلب إليه مغادرة البلاد . ومهما يكن من شىء فهو إما قد أبعد وسرعان ما سمح له بالاقامة من جديد ، أو لم يبعد على الاطلاق نتيجة لوساطة أصدقاء له من علية القوم [٤] لأنه قد استقر طويلا فى روما وكتب تاريخه فيها ، هذا

(١) وصفها بالمدينة الخالدة سبع مرات
(٢) ١٦ ، ٥ ، ١٦ و ٢٨ ، ٥ ، ٧
(٣) ١٤ ، ٦ ، ١٩
(٤) ٢١ ، ١٢ ، ٢٤ ٢٧ ، ٣ ، ٣

إلى أنه قرأ بعض فصول كتابه على الخاصة من أهل روما ووجد عندهم تحبيذاً وتقريظاً [١] . ويبدو أن مبعث المرارة والأسى فى حديث أميانوس عن أهل روما المعاصرة هو ما أنكره من هبوط القيم الأدبية والروحية عندهم . فى الوقت الذى يطلبون فيه إلى الأجانب مغادرة البلاد لا يستثنون منهم أصحاب العلم وحملة الألقاب، يسمحون لثلاثة آلاف راقصة أجنبية بالإقامة . ثم إنه أنكر على أعيان الرومان فخرهم بثرواتهم الباذخة ، وزهوهم بالعربات المطهمة : وتقلبهم فى الملابس الحريرية الناعمة ، وتشدقهم بألقابهم الضخمة ، وتفضيلهم الرقص والغناء على الأحاديث الأدبية [٢] ، وعزوفهم عن صحبة الأجانب [٣] ، فلا عجب أن شك فى إمكان توطد صداقة خالصة بين الناس فى روما [٤] .

وليس من شك فى أن أميانوس لم يعتنق المسيحية ، فإن حديثه عن طقوسها وأعيادها حديث من لم يختلط بالقوم ويتعرف إليهم [٥] ، ولكنه مع ذلك كان شديد العطف عليهم ، فقد أظهر غضبه مرتين

---

(١) ليبانيوس ، الرسالة رقم ٩٨٣

(٢) ٢٧ ، ٣ ، ١٤ و ١٤ ، ٦ إلى آخر الفصل و ٢٨ ، ٤ إلى آخر الفصل .

(٣) ١٤ ، ٦ ، ١٢

(٤) ٢٨ ، ٤ ، ٢١

(٥) ١٤ ، ٩ ، ٧ و ١٥ ، ٥ ، ٣١ و ١٦ ، ٣ ، ٣ و ٢٧ ، ٧ ، ٢

عندما أغلقت مدارس الخطابة فى وجوه المسيحيين [١] ، وامتدح حياة الأساقفة فى تقشفها وزهدها [٢] ، وهو على أية حال من أنصار التسامح الدينى المطلق [٣] .

إذن فقد بقى أميانوس على وثنيته ، ولكنها وثنية سمحة مهذبة، فهو يتحدث عن القوى العلوية بوصفها سماوية أبدية [٤] ، وله إيمان عميق فى القضاء وتسليم مطلق لصروفه ، ولكنه لم يكن قدرياً ، فالإنسان عنده قادر على تغيير مصيره [٥] .

ولا ندرى متى أو أين مات أميانوس . وقصارى ما يمكن قوله أنه مات بعد سنة ٣٩١ م . ذلك أنه يشير مرة إلى نيوثريوس الذى كان قنصلا سنة ٣٩١ [٦] . ومع ذلك فقد أحرق معبد سيرابيس فى تلك السنه ، وهو يتحدث عن السيرابيوم وكأنه لا يزال قائماً منيفاً [٧] .

---

(١) ٢٢ ، ١٠ ، ٧ و ٢٥ ، ٤ ، ٢٠

(٢) ٢٧ ، ٣ ، ١٥

(٣) ٣٠ ، ٩ ، ٥

(٤) ١٧ ، ١٣ ، ٣٣ و ٢٤ ، ١ ، ١

(٥) ٢٨ ، ١ ، ١ و ٢٤ ، ٣ ، ٦

(٦) ٢٦ ، ٥ ، ١٤

(٧) ٢٩ ، ١٦ ، ١٢

(ب)

كتابه

كان أميانوس يونانى المولد ، وكانت مسقط رأسه أنطاكية عاصمة من عواصم الشرق اليونانى ، ومع ذلك فقد آثر أن يكتب تاريخه باللاتينية .

وأغلب الظن أنه منذ تطلع إلى الانخراط فى سلك الجندية عكف على دراسة اللاتينية فأتقنها، فهى لغة الدولة الرسمية ، ولغة الرؤساء الذين يملكون الخفض والرفع ، ولغة المداولات الحربية يوم ترسم الخطط وتنظم ميادين القتال ، وهى بعد لغة الجند مهما انحرفت عن القواعد المألوفة والتعبيرات المأثورة .

ولكن إتقانه اللغة اللاتينية لا يبرر إهماله للغته الأولى، وهو أقدر ولا شك على التعبير بها ، والإفصاح عن أفكاره عن طريقها ، وهى بعد لغة قومه الذين يؤثر أن يذيع صيته ويشتهر فضله بينهم .

ولكن أميانوس آثر الكتابة باللاتينية لعوامل نظنها كثيرة ، فهى لغة روما التى تنبأ لها بالخلود ، وأحر باللغة أن تخلد مع أصحابها ، وهى لغة الخاصة الذين يؤبه لرأيهم فى المسائل الأدبية [1] ، وهى لغة

(١) لم يكن أميانوس يتفهم عقلية الجماهير ولم يكن يحفل بها ١٤ ، ٦ ، ٢٥ و ٢٨ ، ٤ ، ٢٨

الاصطلاحات الحربية والادارية التى يصعب ترجمتها ، وهى لغة التقارير الرسمية التى يعتمد عليها فى تأليفه ، وهى لغة المراجع التى يرجع إليها فى تقصى الأسباب والمقدمات .

ولا شك عندنا فى أنه عند ما خطرت لأميانوس فكرة كتابة التاريخ ، كان هدفه كتابة التاريخ المعاصر له الذى اشترك أحياناً فى بعض أحداثه . وظل هذا هدفه إلى أن فرغ من كتابة تاريخه ، بدليل أنه توقف عند حوادث سنة ٣٧٨ مع أنه عاش بعد ذلك التاريخ بأمد طويل [1] . ولما استقر عزم أميانوس على كتابة التاريخ المعاصر واجهته مشكلة كبرى كثيراً ما تواجه غيره من المؤرخين [2] . فمن أين يبدأ ؟ . لقد هداه حسه التاريخى المرهف إلى أن التاريخ حلقات متصلة لا تنقطع ، هذا إلى أن الحوادث المعاصرة لا تعدو أن تكون نتائج لمقدمات مضت فى الأزمنة الخوالى .

لقد هدته نظرته النقدية الصائبة إلى أن آخر فحول المؤرخين الرومان هو تاسيتوس الذى سرد تاريخ روما إلى عصر الامبراطور دوميتيانوس (٨١—٨٦ م .) ، فلا بأس إذن من أن يتخذ تاريخ

(١) ذكر ليبانيوس ، الرسالة ٩٨٣ أنه لاق نجاحاً سنة ٣٩١

(٢) واجهت هذه المشكلة هيرودوت فأفرد لمقدمته كتابين ، وواجهت تاسيتوس فاضطر بعد كتابة تاريخ روما من عصر جالبا إلى عصر دوميتيانوس أن يعود فيكتب تاريخ الأباطرة السابقين من طيبريوس إلى نيرون ، ولكنها لم تواجه ليفيوس لأنه كتب تاريخ روما منذ إنشائها .

تاسيتوس أساساً لروايته، وأن يبدأ هو حيث انتهى تاسيتوس وأن يكمل تاريخه بعد إعتلاء الامبراطور نيرفا عرش روما سنة ٩٦ م. إلى موت الامبراطور ڤالنس فى معركة أدريانوپل سنة ٣٧٨ م.

وقسم كتابه إلى واحد وثلاثين جزءاً، ضاع منها الآن الأجزاء الثلاثة عشر الأولى، ووصلت إلينا عبر الدهور الأجزاء الثمانية عشر الباقية، وهى تتناول حوادث الأعوام الخمسة والعشرين الواقعة بين سنة ٣٥٣ م. وهى السنة السابعة عشرة من حكم قسطنطين الثانى، وبين سنة ٣٧٨ حين دارت موقعة أدريانوپل، فلابد إذن أن الأجزاء الثلاثة عشر الأولى قد مرت مراً هينا رفيقا بحوادث السبع والخمسين والمائتى سنة التى تناولتها، ولا غرو فهى لم تكن عند مؤلفها أكثر من مقدمة[1].

ومع ذلك فإننا لنأسف لضياع هذه الأجزاء أيما أسف، لأننا نعتمد فى دراسة بعض فترات هذا العهد على المجموعة التاريخية التى تسمى «القصص الأغسطية»، وهى مجموعة تنحدر فى التصور

(١) لعل النساخ فى القرون الوسطى اعتبروها مقدمة فلم ينسخوها مع سائر الكتاب ولذلك لم تصل هذه الكتب إلينا.

التاريخى والتعبير الفنى إلى درك لم تبلغه الكتابة التاريخية فى أحلك فترات العصور الوسطى[1].

وعند ما بدأ أميانوس كتابة تاريخه الذى سماه «جلائل الأعمال» وجد نفسه أمام طريقتين فى السياق التاريخى، فإما أن يأخذ بطريقة تاسيتوس وهى طريقة الحوليات، فيروى حوادث عام فى أرجاء الامبراطورية المتباعدة، ثم يتلوها بحوادث العام اللاحق، وإما أن ينتهج نهج ثوكيديديس فى التأريخ بالصيف والشتاء، فآثر الأولى ولكنه لم يهمل الثانية، وكثيراً ما جمع بين الطريقتين فى كتابة.

ولا نعد أميانوس كاتباً مجدداً، ولكنه على وجه التحقيق قد رجع بالكتابة التاريخية إلى الجادة السوية فى التأليف التاريخى القويم إذ ثار على كلتا الطريقتين اللتين اتبعهما المؤرخون فى عصره وقبيل عصره. أما إحداهما فطريقة «السير» التى شاعت بين المؤرخين فأصبحت تقليداً مأثوراً منذ فجر الامبراطورية الرومانية، فقد أدرك بإحساسه التاريخى السليم أن الحوادث قد تشابكت وتداخلت بحيث لا تغنى فى بسطها سيرة رجل واحد، وليس ذلك لخلو الفترة التى أرّخ لها من شخصية يصح أن تكون نواة لسيرة عظمى،

(١) لو افترضنا أن هذه «القصص الأغسطية» كانت دعاية مقنعة فى صورة «سير» فهى إذن من أسوأ أساليب الدعاية السياسية.

فقد كان شديد الاعجاب بالامبراطور يوليانوس[١]، ولكن لأن حوادث التاريخ عنده كانت أعظم من أن تدور فى فلك رجل واحد . وأما الثانية فطريقة المختصرات التاريخية المخلة التى لا تتتبع الحوادث فى مجراها ، ولا تتعمق أسبابها ومقدماتها .

ومع ذلك فلم ينج مؤرخنا من آثار هاتين الطريقتين نجاة تامة ، فهو أحياناً يقتفى آثار تاسيتوس ويكتب سيرة وجيزة لصاحبها بعد وفاته ، ولكنه لم يطل فى هذه السير إلا مرة واحدة وذلك فى معرض تأبين يوليانوس ، فقد بدأها بذكر الفضائل الجوهرية الأربعة وهى ضبط النفس ، والحكمة ، والعدل ، والشجاعة ، ثم أضاف من عنده الدربة العسكرية ، وحسن القيادة والأريحية ثم نسبها للامبراطور . وأطنب فى الحديث عن عفته بعد موت زوجه ، ولعله لم يطنب إلا ليدلل بغير تحد سافر على أن العفة التى يباهى بها المسيحيون كانت من صفات الوثنى المهذب . كما أنه أحياناً يعتمد على كتاب المختصرات مثل إيوتروپيوس وفستوس وأوريليوس ڤيكتور .

وثمة خصلة أخرى فى التأليف التاريخى توارثها الرومان عن اليونان ، هى الإسراف فى الاستشهاد بالخطب التى ألقيت فى

(١) ٢٢ ، ٩ ، ١٢ و ٢٢ ، ١٠ ، ٧

مناسباتها ، يقتبس منها المؤرخ إن حضره النص ، ويخترعها اختراعاً إن لم يحضره . وقد آثر أميانوس أن يقلل منها ما استطاع حتى أنه لم يستشهد فى كتابه كله إلا باثنتى عشرة خطبة .

والحق أن المؤرخين القدماء كانوا يسوقون هذه الخطب زوجين ، أحدهما يحبذ الرأى والآخر يفنده ، وهكذا حتى يستقر رأى الجماعة على أحد الرأيين . فلم يعد فى عصر أميانوس مجال لهذه الخطب بعد أن انقلبت الجمهورية ملكية مطلقة ، وأصبح قرار الامبراطور فى كل المسائل قضاء لا يرد .

قال ليبانيوس إن أميانوس قد لاقى نجاحاً فى روما سنة ٣٩١[١]. فهو إما قد نشر كتابه فى هذا التاريخ أو أنه قرأ حينئذ بعض فصوله على الخاصة فلاقى عندهم قبولا .

ولسنا ندرى كيف نشر الكتاب وأغلب الظن أنه نُشر أجزاء ، ويعزز هـذا الرأى تلك المقدمة اليسيرة التى نراها فى مستهل الكتابين الخامس عشر والسادس والعشرين ، فالمرجح إذن أن يكون الكتاب قد نشر أجزاء يضم كل منها عشرة كتب وقد وقع هذان الكتابان أول جزئين .

والكتاب خير دليل على أن أميانوس قد بذل فى إعداده

(١) ليبانيوس الرسالة رقم ٩٨٣

قصارى جهده ، فاطلع اطلاعاً واسعاً على المصادر المختلفة المتفرقة ، وامتدت قراءاته وتشعبت حتى شملت أكثر الكتاب الرومان . والشواهد كثيرة على تعمقه دراسة تاسيتوس ووقوفه على أساليبه فى التعبير والتلميح والإشارة ، كما أن الدلائل كثيرة على عنايته بدراسة أسلوب المؤرخ ليفيوس بل على توفيقه فى تقليد فواصله الرصينة ، والغريب من الأمر أنه لم يذكر إسمى المؤرخين مرة واحدة فى كتابه . وقرأ قيصر ولعله أراد أن يقف على وصفه لبلاد الغال قبل سفره إليها [١] . أما اطلاعه على مؤلفات كيكرون فواسع بصير إذ اقتبس منها أكثر من ثلاثين مرة . ولم يقصر اطلاعه على كتاب الطبقة الأولى من الرومان بل تعداهم إلى غيرهم من كتاب النثر والشعر ، ونوّع قراءاته فشملت التاريخ والفلسفة والعلم جميعا .

كان أميانوس يهدف إلى الصدق والأمانة [٢] ، فلم يحاول أن يكتم شيئا ثبتت لديه صحته ، كما أنه لم يحاول المبالغة والتهويل [٣] وهى آفات عابها على التقارير الرسمية التى صدرت فى عهد الامبراطور قنسطنطيوس [٤] .

---

(١) قرر أميانوس ١٥ ، ٩ ، ٢ انه اعتمد على كتاب المؤرخ الجغرافى تيماجيس معاصر أغسطس فى وصفه لبلاد الغال

(٢) ١٥ ، ١ ، ١ و ١٦ ، ١ ، ٣ و ٣١ ، ٥ ، ١٠

(٣) ٢٩ ، ١ ، ١٥ و ١٨ ، ٦ ، ٢٣

(٤) ١٦ ، ١٢ ، ٦٩

وبالرغم من تقديره لخطورة موقف من يعلن رأيه صريحاً فى الحوادث والأشخاص المعاصرين [١] يومئذ ، فإنه لم يتردد فى كيل المدح والذم بحسب ما أملاه ضميره ، وكثيراً ما يجد عيوباً ومثالب فى تصرفات الامبراطور يوليانوس نفسه على الرغم مما كان يستشعره نحوه من تقدير وإجلال [٢] .

وفى الكتاب عيبان أولهما الاستطرادات [٣] الكثيرة التى

---

(١) ٢٦ ، ١ ، ١ و ٢٧ ، ٩ ، ٤

(٢) ٢٣ ، ٩ ، ١٢ و ٢٢ ، ١٠ ، ٧ وعندنا أن الصورة التى رسمها أميانوس للامبراطور يوليانوس «المرتد» تستحق — لما تمتاز به من الاعتدال والأمانة — احتفالا أكثر مما تحظى به الآن من المؤرخين . ذلك أن الامبراطور يوليانوس قد ارتد عن المسيحية إلى الوثنية، وكان يعاصره إلى جانب أميانوس كاتبان انغمس كلاهما فى الصراع الدينى الذى بلغ أشده فى هذا الحين بين الوثنية والمسيحية . فأما أحدهما وهو ليبانيوس فقد بقى على وثنيته فأغرق فى مدح الامبراطور اغراقاً ، وأما الآخر وهو يوحنا خريسوستوم « فم الذهب » فقد اعتنق المسيحية وهاجم الامبراطور هجوماً عنيفاً . وكلاهما مجرح الشهادة عندنا ، والأولى أن نأخذ بالصورة التى رسمها أميانوس له .

(٣) هذا العيب من طبعه أن يتضخم فى عين القارىء الحديث ، لأن مثل هذه الاستطرادات تقع فى الكتب الحديثة فى الهوامش لا فى المتون ، وإننا مدينون لهذه الاستطرادات بمعرفة الكثير عن الحالة الذهنية والاجتماعية فى العصر القديم . وإن رواية أميانوس فى مصر ٢٣ ، ١٥ ـ ١٦ إن هى إلا أحد هذه الاستطرادات الطويلة .

تطول أحيانا فتنسى القارىء سياق الكلام ، وهو عيب لو أنه تحاشاه لبلغ كتابه مرتبة ممتازة بين كتب التاريخ القديمة . وثانيهما ولع شديد بالمحسنات وهو عيب يرجع أولا إلى ذوق العصر الذى كان يميل إلى المحسنات ويطرب لها ، ويرجع ثانياً إلى أن الكتاب كتب ليقرأ فى المحافل والمنتديات التى يكون لجرس الكلام فيها وقع جميل .

(ج)

اميانوس ماركيلينوس فى مصر

قال أميانوس فى مستهل استطراده الطويل فى وصف مصر « وتمشياً مع مقتضى المقام لنتناول الآن باختصار الموضوعات المصرية التى تناولتها باسهاب فى حديثى عن أعمال هادريانوس وسيڤيروس ، راوياً فى الأغلب ماشاهدت بنفسى »[1] ومؤدى هذا الكلام أن أميانوس أسهب فى وصف مصر فى معرض الحديث عن الامبراطور هادريانوس (١١٧ — ١٣٨ م) الذى زار مصر سنة ١٣٠ ب م ، والامبراطور سبتميوس سيڤيروس (١٩٣ — ٢١١ م .) الذى زار مصر سنة ٢٠٠ م . ، وأنه الآن إذ يعاود الحديث فى مصر سيتوخى الاختصار مقتصراً على إيراد ما شاهد بنفسه . وإذن فقد زار أميانوس مصر ، ولكننا لا نعرف متى كانت هذه الزيارة على وجه التحقيق . وأغلب الظن أنه زارها فى الفترة التى وقعت بين اعتزاله الجندية والمناصب العامة وبين استقراره فى روما ، أى فيما بين ٣٧٨ وبين ٣٨٣ م .

وأغلب الظن أنه نزل فى الاسكندرية وشاهد آثارها ، فهو فى

(١) ك ٢٢، ١٥، ١

حديثه عن معبد السيرابيس يقول «إن الكلمات لا تفى بوصفه»[1] فكأنه لابد لتقدير مبلغ عظمته من زيارته. ولعله أقام ردحاً فى كانوبوس من ضواحى الأسكندرية لأنه يقول «إن ساكن هذا الحى ليخيل له حين يسمع حفيف النسيم فى الجو المشمس أنه خارج عن عالمنا هذا»[2] وهو وصف أقرب أن يكون صادراً عن تجربة شخصية. ثم إنه زار منف ولعله لاقى بعض الصعوبة من وعورة الطريق لأنه يقول «إنها تستحق عناء زيارتها»[3] وزار أيضاً طيبة فهو يقول فى وصفها «وفى هذه المدينة رأينا بين الهياكل الضخمة والتماثيل المختلفة التى تصور أشكال آلهة المصريين مسلات عديدة»[4] وإذن فقد قام أميانوس بالرحلة التقليدية التى كان يقوم بها الرومان فى مصر إذ ينزلون فى الاسكندريه ثم يركبون النيل ويزورون منف ثم يصعدون فى النهر فيزورون تمثالى ممنون ومعبد الكرنك ثم يقفلون راجعين. ولقد رجع من رحلته هذه ملء الوفاض بأخبار مصر وأهلها وآثارها، ولكنه لم يدون كل ما رأى أو عرف فهو يقول «ولكن حيث أن ثمة غرائب كثيرة تخرج عن نطاق كتابى هذا،

---

(١) ٢٢، ١٦، ١٢

(٢) ٢٢، ١٦، ١٤

(٣) ٢٢، ١٥، ٢٨

(٤) ١٧، ٤، ٦

فلأتركها لأصحاب العقول السامية ولأتحدث الآن قليلا فى أقسام البلاد الإدارية»[1].

° ° °

إن رواية أميانوس فى مصر تقع فى الفترة الواقعة بين سنة ٣٥٥ وسنة ٣٦٣ فهى تصف حال مصر فى هذه السنوات التسع من وجهة النظر الرومانية. والواقع أن تاريخ مصر فى القرن الرابع ليدور فى فلك رجل واحد هو أثناسيوس. ذلك أن النزاع حول طبيعة المسيح[2] قد احتدم بين أتباعه وبين أنصار آريوس راعى بوكاليس من ضواحى الأسكندرية. ولسنا فى صدد التحدث فى منشأ هذا النزاع ولا فى طبيعته، ويكفى أن نلاحظ أن العناصر المصرية كانت تأخذ برأى أثناسيوس، فى حين أن العناصر اليونانية

---

(١) ٢٢، ١٥، ٣٢

(٢) لم ينكر آريوس ألوهية المسيح ولكنه اعتقد أن المسيح وهو ابن الله لابد أن يكون أصغر منه لأن الآب سابق فى الوجود على الابن. ورأى أن طبيعة المسيح مشابهة لطبيعة أبيه وإن لم تكن هى نفس طبيعته، ومن هنا سمى أتباع آريوس أصحاب الطبيعتين وسمى أنصار اثناسيوس أصحاب الطبيعة الواحدة. هذا إلى أن آريوس وأتباعه كانوا يؤمنون بأن المسيح هو خالق الكون لأن الله أعلى من أن يتولى هذا الأمر بنفسه. وهذه العقيدة تجعل الهوة الكبرى بين الخالق والمخلوق تتضاءل بعض الشىء، فكانت أقرب إلى فهم العامة وأحب إلى قلوب الجماهير وآثر لدى الأباطرة ونسائهم. أما أثناسيوس فقد رأى أن هذه العقيدة مع أنها تقرب المسيح من قلوب الناس فانها تتعالى بالله إلى حد تخرجه عن نطاق العواطف البشرية.

والمتأثرة بالفلسفة اليونانية كانت تميل إلى مذهب آريوس ، ومن هنا اصطبغ جهاد أثناسيوس الدينى بالصبغة القومية .

ولقد اضطرت الدولة الرومانية أن تعمل على لم شمل المسيحيين حتى تجعل من ولائهم كلهم لدين واحد رباطاً يجمع أرجاء الامبراطورية المترامية على هدف واحد فى محاربة الفرس من ناحيه والبرابرة من ناحية أخرى . ولذلك فقد عقد الامبراطور قسطنطين مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ب.م فذهب إليه اثناسيوس فى معية إسكندر أسقف الإسكندرية ، وصوت المجتمعون فى جانب أثناسيوس وأسقفه ورجعا كلاهما منتصرين إلى الإسكندرية . ومات الأسقف سنة ٣٢٨ وخلفه على كرسى الإسكندرية أثناسيوس .

ولكن أنصار آريوس لم يرضوا بقرار مجمع نيقية الذى خذلهم . وظلوا يحيكون الدسائس ضد أثناسيوس ويوجهون إليه التهم حتى صدرت إليه أوامر الامبراطور قسطنطين بالمثول أمام مجمع صور سنة ٣٣٥ م . وقد قرر المجتمعون فيه — وأكثرهم من أنصار آريوس — إدانة أثناسيوس . فشخص أثناسيوس إلى القسطنطينية ليعرض الأمر على الامبراطور نفسه . ولكنه وجد نفسه فى القسطنطينية متهماً بتهمة أخطر كثيراً فى نظر الامبراطور ورجال البلاط من الزيغ الدينى ، وهى تعويق سير سفن الغلال

من الاسكندرية إلى القسطنطينية . وبالرغم من محاولات أثناسيوس لدحض التهمة فقد أمر الامبراطور بنفيه من الاسكندرية واعتقاله فى تيرير .

ومات الامبراطور قسطنطين سنة ٣٣٧ ، بعد أن أوصى بأن يعاد أثناسيوس إلى كرسيه ، وقسم أبناؤه الثلاثة الامبراطورية فيما بينهم ، فأما الابن الأكبر ، قسطنطين الثانى ، فقد خلف أباه على عرش القسطنطينية واقتسم مع الابن الأصغر قنسطانس الامبراطورية الرومانية فى أوروبا . وأما الابن الأوسط قنسطنطيوس — فقد خلف أباه على حكم سوريا وما بين النهرين وأرمنيا ومصر .

ولم تمض سنتان على رجوع أثناسيوس من تيرير حتى عقد قنسطنطيوس مجمعاً فى أنطاكية تقرر فيه عزل أثناسيوس وتنصيب جريجوريوس مكانه ، ووصل هذا إلى الاسكندرية سنة ٣٣٩ . فولى أثناسيوس وجهه شطر روما محتمياً بقنسطانس ، وفى روما وطد صداقته بأسقف روما يوليوس [1] الذى وجه خطاباً إلى أتباع أثناسيوس فى مصر يمتدح فيه استمساكهم به وحرصهم على

(١) يوليوس الأول انتخب أسقفاً لروما فى السادس من فبراير سنة ٣٣٧ وتوفى فى الخامس من أبريل سنة ٣٥٢

رجوعه ويحثهم على مقاومة الأسقف الجديد جريجوريوس. وآزر قسطانس أثناسيوس ونصحه بأن يحضر مجمع سارديكا سنة ٣٤٣ ولكن أساقفة الشرق من أتباع آريوس انسحبوا من هذا المجمع لأن أغلبية أعضائه كانت من الغرب ومن أنصار أثناسيوس. وفي هذا المجمع تقرر أن أثناسيوس على صواب. فأثار هذا القرار حفيظة قسطنطيوس. وصدرت أوامره بحظر دخول الاسكندرية على أثناسيوس والقبض عليه وقتله إن دخلها. وفي هذه الأثناء مات الأسقف جريجوريوس، وأرسل قسطانس إلى قسطنطيوس خطاباً يهدده فيه بأنه إن لم يعد أثناسيوس إلى كرسيه فسوف يعاد بقوة السلاح. فخاف قسطنطيوس قيام الحرب الأهلية ورفع الحظر عن أثناسيوس فدخل الاسكندرية سنة ٣٤٦ ومكث فيها زهاء عشر سنوات في أمن وهدوء [1].

ولكن قسطانس حامي أثناسيوس مات سنة ٣٥٠ إذ قتل في الثورة التي قام بها ماجنتيوس، وشغل قسطنطيوس في السنوات الثلاث التالية في إخماد الثورة، وتمكن آخر الأمر

---

(١) تسمى هذه الفترة من الهدوء النسبي في حياة أثناسيوس «بالفترة الذهبية» وقد تفرغ فيها إلى خدمة الكنيسة، والأرجح أنه نصب فرومنتيوس الذي بشر بالمسيحية في أكسوم تشجيعاً على الخدمة في هذه الفترة الخصبة من حياته. ولا شك في أن نشاط أثناسيوس خارج حدود الامبراطورية الرومانية — وقد كانت أكسوم خارجة عن نطاقها — قد أثار شكوك الامبراطور وريبته في أعماله الانشائية.

من قمعها وقتل زعيمها ماجنتيوس سنة ٣٥٣ وفي هذه الأثناء كان يوليوس أسقف روما قد توفي وخلفه ليبريوس على كرسي روما.

وشعر قسطنطيوس أنه بعد مقتل قسطانس قد أصبح سلطان الشرق والغرب وإليه مقاليد الحكم في العالم المسيحي كله، فعاودته رغبته في فرض مذهب آريوس على المسيحيين أجمعين. فعقد مجمعاً في آرلس سنة ٣٥٥ ومجمعاً آخر في ميلان سنة ٣٥٥ لعزل أثناسيوس.

ورأى الامبراطور ضرورة ضم أسقف روما إلى صفه في محاربه أثناسيوس، فأرسل وزيره يوسيبيوس يحمل له الهدايا مع كتاب من الامبراطور. ولكن الأسقف أبى إطاعة أمر الامبراطور بحجة أن كنيسة روما نفت في مجمع سارديكا سنة ٣٤٣ كل إثم عن أثناسيوس فلا يحل له أن يدينه الآن. وأن قرار المجمع لا ينسخه إلا قرار مماثل تتخذه الكنيسة بغير حضور أنصار آريوس وأعوان الامبراطور. فأمر الامبراطور بإلقاء القبض على الاسقف العنيد، فاختطف من المدينة اختطافاً ونفي إلى تراقيا.

واشتط الامبراطور في فرض عقيدته، واضطر نائب ليبريوس أن يشترك في إصدار الحكم بإدانة أثناسيوس. وصدر القرار الامبراطوري سنة ٣٥٦ بنفي أثناسيوس وتعيين جيورجيوس

الكاپادوكى أسقفاً للأسكندرية بدلا منه . وفر أثناسيوس من وجه الحكومة ووجد عند رهبان وادى النطرون مهرباً وملجأ .

ولا شك أن الامبراطور — ولم يكن قد نسى بعد تجربته المريرة فى قمع ثورة ماجننتيوس — كان يخشى قيام الثورة فى مصر خصوصاً بعد أن أخفقت السلطة الادارية فى وضع يدها على أثناسيوس . ومن هنا كانت شدة صرامته فى تحقيق تهم الخيانة العظمى وبطشه بكل من حامت حولهم أتفه الشبهات ، مما أفاض أميانوس فى وصفه بصدد الحديث عن معبد الإله « بس » فى أبيدوس .

وهذه هى الفترة التى كانت فيها اليد العليا فى مصر لاتباع آريوس وهى لم تدم طويلا . ذلك أنه عندما طلب الامبراطور قوات لتحارب فى فارس ثار الجند وانتخبوا يوليانوس امبراطوراً ، ولكن قسطنطيوس لم يقبل هذا الوضع ، فقامت الحرب الأهلية . وأرسل قسطنطيوس بعض أعوانه إلى مصر خوفا من وقوعها فى قبضة يوليانوس ، وكانت المواقع قد بدأ يستعر أوراها عندما مات قسطنطيوس وأصبح يوليانوس « المرتد » امبراطوراً .

وكانت الاسكندرية منقسمة شيعاً ، أولها الوثنية التى اعتقدت أن اعتلاء يوليانوس الوثنى عرش الامبراطورية معناه خلاصها من ربقة المسيحية التى رزحت تحتها خمسة وخمسين عاما ، فأعلنت

عن اغتباطها هذا بأن عاثت فى الأرض فساداً . وثانيتها أنصار أثناسيوس الذين وجدوا فى الامبراطور الجديد مخلصاً من عسف أتباع آريوس فأعلنوا عن استبشارهم بالعهد الجديد باحتلال الكنائس التى كانت قد اغتصبت منهم . وثالثتها أنصار الامبراطور الراحل ، وهم إما من أنصاره الدينيين أتباع آريوس ، أو من أعوانه العسكريين الذين أوفدهم إلى مصر أثناء اصطراعه مع يوليانوس .

فلا عجب إذن أن أصبحت الاسكندرية عند تولى يوليانوس مسرحاً لحوادث عنيفة دامية كان أول ضحاياها الأسقف جيورجيوس الكاپادوكى .

وعاد أثنايوس إلى كرسيه فى الاسكندرية سنة ٣٦٢ وسرعان ما عقد مجمعا فى الاسكندرية لتوثيق قرارات مجمع نيقيه .

ولعل الاضطرابات التى عجت بها مصر يومئذ هى التى دعت يوليانوس إلى نفى أثناسيوس من جديد . فغادر الاسكندرية وتوارى عن أعين الحكومة . ولكن اختفاءه لم يطل لأن الامبراطور يوليانوس مات سنة ٣٦٣ فى حربه مع الفرس ، ورجع أثناسيوس إلى الاسكندرية ليستأنف جهاده من جديد .[١]

* * *

(١) استأنف أثناسيوس نشاطه فى الاسكندرية سنة ٣٦٤ ثم نفاه الامبراطور فالنس — وكان يدين بمذهب آريوس — فى سنة ٣٦٦ وفارق الحياة فى ٢ مايو سنة ٣٧٣ .

إن الصورة التى يرسمها أميانوس لمصر لتبرز ملامحها فى منتصف القرن الرابع فى وضوح وجلاء . فالوثنية فى سبيلها إلى الانقراض لم يبق من مراسمها إلا القشور الهينة مثل الاهتداء إلى عجل أبيس واستنباء وحى بس ، والاحتفال بوفاء النيل . واللغة الهيروغليفية تكاد تكون غريبة فى البلاد ، يحتاج تفهمها إلى جهود العلماء المنقطعين . والناس لاحديث لهم إلا الضرائب وفداحتها ، والشكوى من الجور فى تحصيلها والعسف فى استقضائها ، لايصرفهم عن هذا الحديث إلا التحزب إلى أحد المذهبين الدينيين اللذين يصطرعان فى الاسكندرية بين أتباع آريوس يسندهم الامبراطور قنسطنطيوس وبين أنصار أثناسيوس . والحق أن منصب أثناسيوس كان منصباً أضفت عليه التقاليد القديمة هيبة وجلالا ، وزادته حماسة الشعب الدينية سطوة ونفوذاً فأصبح صاحبه مناط آمال المصريين بعد أن ضاع استقلالهم السياسى ، ومعقد آمالهم فى الاستقلال والتحرر من نير الاحتلال ، والتخلص من عبء الضرائب الباهظة . ذلك أن الكاهن الأعظم كان السلطة الوحيدة فى مصر التى تسيطر على مشاعر الناس فى أقسام البلاد المختلفة ، فى الوقت الذى كانت فيه سلطة الحكام المدنيين والعسكريين لاتمتد إلى خارج مديرياتهم إلى يولون عليها . فكان إذن فى مقدوره أن يشعل الفتنة فى البلاد ويرفع راية العصيان .

وقد قام الكاهن الأعظم إيسيدوروس بالثورة فعلا فى الدلتا سنة ١٧٢ م . فلا غرو أن عمل الرومان على أن تكون الوظيفة فى أيديهم يولون فيها من بينهم من يثقون فى ولائه وإخلاصه .

فلما ارتفع نجم أثناسيوس وانتشر نفوذه ، لم يعد أسقفاً فحسب بل احتل المركز الروحى الذى كان يشغله الكاهن الأعظم فيما مضى ، فتجلت للامبراطورية الرومانية المحتلة خطورة مركزه ، ومن هنا كان هذا العداء الشديد بينه وبين الأباطرة ، من اعتنق منهم مذهبه مثل قسطنطين ، ومن أختلف معه فى العقيدة مثل قنسطنطيوس وڤالنس ، ومن لم يؤمن بالمسيحية على الاطلاق مثل يوليانوس . فالعداء إذن كان عداء سياسياً لا دينياً ، وأغلب الظن أن التفاف المصريين حول أثناسيوس وتعضيدهم له كان بدافع قومى سياسى أكثر منه دينى مذهبى .

وقد كانت هذه الصورة حرية أن تبلغ غاية الدقة فى وصف مصر لو أن أميانوس التفت إلى الرهبان وقد اتخذ منهم أثناسيوس جيشا يؤازره ، أو وصف أديرتهم وصوامعهم وقد وجد فيها أثناسيوس مهرباً عن عين الحكومة التى تطلب رأسه . ولكن حركة الرهبنة التى اتسعت فى القرن الرابع كانت مصرية العنصر ، وكانت لغة الرهبان المصرية ، فإن زعيمى الحركة أنطونيوس وباخوميوس كانا لا يعرفان اليونانية ، وكان الرهبان من اليونانيين

قلة يفرد لها جناح صغير فى الدير . ولعل هذا الحاجز اللغوى هو الذى حجب هذه الحركة الكبرى عن عين المؤرخ البصير أميانوس ماركيلينوس .

° ° °

وقد نقلت ما ورد فى كتابه عن مصر معتمداً عن النص الذى أخرجه كلارك فى برلين (الجزء الأول سنة ١٩١٠ والجزء الثانى سنة ١٩١٥) مع مراعاة القراءات التى أثبتها رولف سنة ١٩٣٥ . وآثرت فى الترجمة الاقتراب من الأصل ما وسعت اللغة ، مبرزاً خصائص أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره .

وهيب كامل

أميانوس ماركيلينوس فى مصر

نفى أثناسيوس وليبريوس

من حوادث عام ٣٥٥ . ك ١٥ ، ٧ ، ١٠

حين كان ليونتيوس حاكما لروما[1] ، صدر الأمر من قنسطنطيوس بأن يرسل ليبريوس وهو قس فى الدين المسيحى[2] إلى المحكمة الخاصة[3] بتهمة معارضة أوامر الامبراطور وقرارات أكثرية زملائه[4] فى مسألة سأعرض لها باختصار . إن أثناسيوس الذى كان فى ذلك الوقت أسقفاً فى الاسكندرية[5]

---

(١) كان ليونتيوس حاكما فى روما سنة ٣٥٥ . وقد اشتهر بعدله وحزمه وسرعة فصله فى الأمور ، وقد قمع فى روما ثورتين صغيرتين أولاهما عندما ثار الشعب لما صدر الأمر الامبراطورى بالقاء القبض على البطل الرياضى فيلوروموس والثانية عندما قل النبيذ فى الأسواق فثار الشعب وأعمل النهب فهدأ الحالة سريعاً وجلد بيتر زعيم الفتنة

(٢) توفى البابا يوليوس فى ٥ أبريل سنة ٣٥٢ وخلفه على الكرسى البابوى فى روما البابا ليبريوس فى ٢٢ مايو ٢٢ سنة ٣٥٢ .ونفاه الامبراطور قنسطنطيوس سنة ٣٥٥ وعين مكانه البابا فيلكس سنة ٣٥٦ . واستدعاه من منفاه سنة ٣٥٨ وظل على الكرسى البابوى إلى أن مات سنة ٣٦٦ .

(٣) عقدت هذه المحكمة فى ميلان

(٤) قرر المجمع المقدس فى ميلان سنة ٣٥٥ الأخذ بمذهب آريوس فى طبيعة المسيح بأغلبية الأصوات ، ولم يكن كرسى روما ممثلا فيه ، ولذلك لم يتقيد ليبريوس بقراراته .

(٥) قوله أسقف فى الاسكندرية بدلا من أسقف الاسكندرية فيه تهوين من شأن أثناسيوس ، ولعله يعنى أن كرسى الاسكندرية كان يتسع لأكثر من أسقف ، وفى التعبير إشارة إلى أن خصمه آريوس كان راعى بوكاليس وهى من ضواحى الاسكندرية وكان فى هذا الوقت موضع رضا الامبراطور .

كان رجلا يعطى نفسه من الاهمية أكثر مما تسمح له وظيفته[1] وكان يحاول أن يتدخل فى أمور تخرج عن نطاق إختصاصه فيما ذهبت إليه الشائعات المتواترة[2] . ولذلك فقد عقد لهذا الغرض من أتباع هذه الديانة نفسها اجتماع أو مجمع مقدس[3] كما يسمونه وخلعوه من المركز الكهنوتى الذى كان يشغله . وقد قيل إنه لبراعته الفائقة فى الاعتماد على الطوالع أو فى زجر الطير[4]

---

(١) الحق أن أثناسيوس كان يتصرف كأنه زعيم مصر القومى وقائد زعيم حركتها الانفصالية عن الامبراطورية الرومانية ، ولم يحصر نشاطه داخل نطاق وظيفته الكهنوتية

(٢) إن كلمات أميانوس لاتعدو أن تكون صدى لما قاله الأمبراطور يوليانوس فى رسالته (٥١) إذ يسميه «أثناسيوس الكريه» و «المهرج السياسى الذى يتدخل فيما لايعنيه» ، و «المتآمر الجرىء الذى يزهى بما يتسم به من تهور» وقوله «يتدخل فى أمور تخرج عن نطاق اختصاصه» ترديد للاتهامات التى كيلت لأثناسيوس فى مجمع صور سنة ٣٣٥ إذ اتهم يومئذ بقتل أرسينيوس ، وبفرض الضرائب على الملابس الكهنوتية ، والتآمر ضد الامبراطور ، وافتتاح كنيسة للصلاة دون إذن الامبراطور .

(٣) هو مجمع ميلان المقدس الذى عقد سنة ٣٥٥

(٤) لعل منشأ شائعة براعة أثناسيوس فى زجر الطير ، أنه كان يجوس مرة فى بعض أحياء الاسكندرية فاجتمع حوله رهط كبير من وثنييها ، فرأوا غراباً ينعق فوق رأسه ، فسألوه ماذا يعنى الغراب بنعيقه ، ولعلهم كانوا يتهكمون به أو يحاولون بث التطير والتشاؤم فى قلبه ، ولكنه ابتسم وقال إنه يقول «كراس» ، «كراس» (وهى تعنى فى اللاتينية «غداً ، غداً») «ذلك أن غداً سوف يصدر الأمر الامبراطورى بابطال عيدكم الوثنى» وقد تحققت هذه النبوءة . ولاشك أن أثناسيوس كان على علم بورود هذا الأمر الامبراطورى من بعض أنصاره ومريديه .

كان أحيانا يتنبأ بالحوادث المقبلة[1] . وبالإضافة إلى هذه التهمة فقد رمى أيضا بتهمة أخرى تجافى رسالة الدين الذى كان يرأسه[2] .

فلما صدر أمر الامبراطور إلى ليبريوس بخلعه من مركزه الكهنوتى بقرار رسمى ، فإن ليبريوس اعترض بشدة مع أنه كان يشارك الآخرين رأيهم[3] وكثيراً ما أعلن أن منتهى الظلم أن ندين

---

(١) ذاع صيت أثناسيوس فى المهارة والكهانة والسحر وكثيراً ما [illegible] اعتبروه كبير سحرة مصر . ومن منشأ هذه التهمة هو سرعة تحرك أثناسيوس بين أجزاء الامبراطورية المتباعدة فى زمن شق فيه الرحلة ، وسرعة بديهته فى النقاش والجدل ، وإدراكه التام للظروف السياسية فى الامبراطورية مما مكنه أحيانا من استنتاج ما لابد من وقوعه من أحداث . فهو مثلا حينما نفى للمرة [illegible] وذهب إلى روما طمأن أنصاره بقرب عودته إلى الاسكندرية ، كان يعرف مدى الخصومة القائمة بين قنسطانس فى الغرب وبين قنسطنطيوس فى الشرق . كما أنه كان مدركا مدى ضعف العاطفة الروحية عند ولى العرش الامبراطور جوليانوس وهو وثنى [illegible] وقال « إنها سحابة لا تلبث أن تنقشع » .

واتهم أثناسيوس فى مجمع صور سنة ٣٣٥ أنه قتل رجلا يدعى أرسينيوس وبتر يده ليستخدمها فى أعماله السحرية . فلم يرد على هذه التهمة وإنما استصحب أرسينيوس نفسه إلى المجمع وأبرز يديه مجتمعين فلم يسعهم إلا تبرئته من هذه التهمة بالذات . ولكن كان بين خصومه وأعدائه أيضا من رأى فى وجود أرسينيوس فى المجمع دليلا قاطعاً على استخدام أثناسيوس السحر .

(٢) لعله يعنى ما اتهم به أثناسيوس من الاتصال بالثائر ماجننتيوس وتشجيعه على الاستمرار فى الثورة ضد قنسطنطيوس .

(٣) إن قوله « كان يشارك الآخرين رأيهم » فيه مغالطة تاريخية . لأن ليبريوس كان إلى ذلك الحين أى قبل نفيه صريح التعضيد لأثناسيوس ، وهو لم يقبل مبادئ أشياع آريوس إلا بعد رجوعه من منفاه سنة ٣٥٨ .

شخصا غيابيا دون سماعه . فهو إذن قد تحدى بهذا القول أمر الامبراطور تحديا سافراً . ومع أن هذا الامبراطور — الذى كان دائم العداء لأثناسيوس[1] — كان يعلم أن أمر خلعه قد تم ، فإنه كان حريصا أشد الحرص أن يكون القرار مدعما بنفوذ أسقف المدينة الخالدة القوى . وحيث أنه لم ينل بغيته فقد اختطف ليبريوس بشق الأنفس فى جنح الليل خوفا من الشعب الذى كان شديد التعلق[2] به .

---

(٤) لقد استمر عداء الامبراطور قنسطنطيوس لأثناسيوس طيلة حكمه ٣٣٧ - ٣٦١ وليس أدل على عنف هذا العداء من نفى أثناسيوس مرتين فى عهده مرة سنة ٣٤١ والأخرى سنة ٣٥٦ وهو لم يقبل جلوسه على كرسى الاسكندرية فيما بين هذين التاريخين إلا تحت تهديد أخيه قنسطانس .

ولم يقف أثناسيوس موقفاً سلبياً من هذا العداء ، فقد رفض الاذعان لسلطان الامبراطور ، وأرسل إليه مرة احتجاجا « من أجل خلاص روحه المائتة » وهذه هى الوثيقة الوحيدة التى تسجل احتجاجا على الامبراطور الذى كان مطمئناً إلى خلود روحه وكان يمهر امضاءه مسبوقاً بلقب «صاحب الخلود» ، ويسمى نفسه «رب العالم كله» . ثم إن أثناسيوس كتب كتاباً إلى أنصاره من الرهبان المصريين بسماه « تاريخ شيعة آريوس » وصف فيه الأمبراطور بأنه «عدو المسيح وزعيم الكفر» .

(٥) كسر الامبراطور شوكة ليبريوس بأن عين أسقفاً آخر مكانه يدعى فيلكس سنة ٣٥٦ وهو الملقب بعدو البابا . ولما زار الامبراطور روما سنة ٣٥٧ ورأى مبلغ استمساك الشعب بالأسقف المنفى أصدر أمراً باعادته على أن يقتسم السلطة الدينية مع فيلكس . ورجع ليبريوس إلى روما فى أول أغسطس سنة ٣٥٨ واستقبل فيها استقبال الفاتحين .

مهبط وحى بس

من حوادث عام ٣٥٦. ك ١٩، ١٢، ١-١٥

وفى أثناء هذه المتاعب[1] وكأنما كان الأمر طبقا لبعض التقاليد القديمة ، نُفخت الأبواق إيذاناً لا بالحرب الأهلية بل ببعض القضايا المزعومة فى الخيانة العظمى . وأوفد ذلك الوزير الشهير بولس الذى يكنّى عادة « بالجهنمى » ، لتحقيق هذه القضايا والحكم فيها . وهو رجل خبير فى فنون الإعدام ، وكما أن مدرب المصارعين يجد الربح والكسب بالعمل فى المآتم والأعياد[2] ، فكذلك بولس يجدهما فى أدوات التعذيب والجلاد . ولما كان عزمه منعقدا على الايذاء ، فلم يتورع — طالما كان يرتع فى مهمة الفتك — عن نصب المكائد وإلصاق التهم الخبيثة بالأبرياء .

هذا وإن حادثة هينة يسيرة قد هيأت له الفرصة ليوسع نطاق

---

(١) كان الامبراطور قسطنطيوس فى سيرميوم عاصمة ولاية بانونيا التى كانت تضم كرواتيا وكارنيولا وسلافونيا وبوسنة وهنغاريا والنمسا ، وهناك سمع بثورة السرماتيين فهرع إلى مدينة ولبريا لاخمادها ونجح فى قمعها بعد معركة عنيفة مات فيها الكثيرون ، ورجع بعدها إلى سيرميوم ثم ما لبث أن وجه إلى القسطنطينية ليتمكن من معالجة الكارثة التى أصابته بانكسار جيوشه فى آمد أمام جحافل الفرس .

(٢) كانت حفلات المصارعة تقام فى روما فى المآتم والأعياد

تحقيقاته إلى أبعد مدى . فهناك مدينة تسمى أبيدوس[1] تقع فى أقصى بقعة من إقليم طيبه ، وفيها مهبط وحى إله يدعى محلياً بيسا[2] كان فيما مضى يكشف المستقبل . وكانت العادة أن يحتفل به فى حفلات تقليدية تحييها الاقاليم المجاورة .

وحيث أن الناس يسألون مشورة الأرباب بعضهم بالحضور شخصياً والبعض الآخر بإيفاد مندوبين عنهم يحملون كتاباً مخطوطاً بما يسألون معلنين فيه رجاءهم صراحة ، فإن هذه الأوراق أو الرقاق التى تحمل طلباتهم كانت أحيانا تبقى فى المعبد حتى بعد تلقى الإجابات ، وقد أرسلت إلى الامبراطور بعض هذه الأسئلة بسوء نية ، وهو ضيق الصدر . ومع أنه كان أصم فى مسائل على أقصى جانب من الخطورة ، فقد كان فى هذا الموضوع أرق من شحمة الأذن كما يقولون ، وبما أنه متظنن تافه فقد استشاط غضباً عنيفاً حاداً ، وأمر

---

(١) هى العرابة المدفونة الآن

(٢) لم يكن الإله بس من الآلهة العظمى فلم تكن تقام له المعابد أو توقف عليه الأراضى ، ولكنه كان ذا سطوة ونفوذ عند العامة ، وتفشت عبادته بينهم ، وليس أدل على شهرته من كثرة تماثيله الفخارية الصغيرة التى توجد الآن فى مختلف أنحاء مصر . وكلما زاد الجهل فى مصر ، زاد الاعتقاد فى السحر ، ويبدو من كلام ماركيلينوس أن بس احتل المركز الرئيسى من معبد أبيدوس وهو مركز عبادة أوزيريس . وإن النقوش والكتابات الموجودة على حوائط المعبد ، وكذلك الأوراق البردية المصرية تدلنا على أن وحى بس كان يلقى إلى مريديه عن طريق الأحلام .

بولس فى الحال بأن يتوجه من فورة إلى الشرق وذوده بسلطة إدارة التحقيقات وإصدار الأحكام دون قيد أو شرط كما لو كان قائداً اشتهر بحنكته .

وقد عهد بمثل هذه المهمة إلى موديستوس ، الذى كان فى هذا الوقت كونت الشرق ، وهو رجل صالح لهذه المهام وما شاكلها . ذلك أن هرمجينيس النبطى الذى كان فى ذلك الوقت قائد الحرس الامبراطورى قد أهمل على اعتبار أن طبعه بالغ الرقة .

وأسرع بولس كما أمر مهور النفس وقد امتلأ غيظاً قاتلا . وبما أن العنان قد أطلق للوشاية على نطاق واسع ، فقد كان الناس يساقون إليه من أرجاء العالم كله المشاهير منهم والمغمورون على حد سواء ، وقد أحنت الظهور من بعضهم عقد السلاسل ، ومن البعض الآخر مشاق الحبس .

واختيرت سكيثوبوليس[1] وهى إحدى مدن فلسطين مسرحاً للتعذيب والقتل ، فقد رأى أنها أنسب المدن لسببين أولهما أنها أكثر تحصيناً من غيرها ، وثانيهما أنها تقع فى منتصف الطريق بين أنطاكية والاسكندرية التى كان يساق منها الجانب الأكبر من المتهمين .

وكان من أوائل من سيق إليه سمبليكيوس ابن فيليبوس وقد

---

(١) فى الأساطير أن الذى ابتناها هو باخوس

كان فيما سلف حاكما وقنصلا[1] وقد أدين بتهمة أنه فيما يزعمون قد استفهم عن أمر الحصول على السلطات الامبراطورية . وقد صدر الأمر بنفيه فى كتاب للامبراطور الذى لم يغتفر قط فى مثل هذه الأحوال خطأ أو زيغاً لولاء سابق . وهكذا حتمت الأقدار لحكم عليه بالنفى إلى إحدى الجزر فنجا بجلده .

ثم جاء دور پارناسيوس — الذى كان فيما سلف حاكما لمصر — وهو رجل سهل الطباع وقد بلغ من دقة موقفه أن قد طولب فى المحاكمة برأسه ، ولكنه هو الآخر قد أرسل إلى المنفى . وكثيراً ما سمع قبل هذه الواقعة بكثير يقول إنه عندما غادر پاترا — وهى مدينة فى أخايا[2] وقد ولد فيها وكان له فيها منزل — للحصول على إحدى الوظائف ، رأى فيما يرى النائم كأن أشباحاً كثيرة متشحة بالمسوح التراجيدية فى توديعه .

وحدث فيما بعد أن استدعى أندرونيكوس المحاكمة ، وهو رجل اشتهر بدراساته الأدبية وذيوع أغانيه . ولكن حيث أنه أثبت

---

(١) كان الكاهن الذى يلقى فى أذن بعض ذوى النفوذ والسلطان بأن الوحى ينبىء بأنه سيكون امبراطوراً ، يستطيع أن يخلق من أنصار الامبراطور الموالين له خونة مارقين مستعدين للثورة والعصيان مطمئنين إلى نتائجهما ، وكان الأولى أن تحل العقوبة بالكهنة وأن يمنع الوحى من الهبوط على الناس عن طريقهم . ولكن بدلا من إسكات الوحى عوقب مستطلعوه .

(٢) مقاطعة تقع فى الجنوب الغربى من تساليا

براءته فى شىء من الثقة فقد بُرِّئت ساحته وأطلق سراحه .

وكذلك ديمتريوس [1] الفيلسوف المكنى بالقيثارة وهو متقدم فى السن ولا شك ولكنه قوى الجسم والعقل وهو لما ووجه بتهمة تقديم الضحايا مرات عديدة لم يستطع إنكارها . ولكنه قرر أنه تعود أن يفعل هذا منذ شبابه المبكر لاسترضاء الأرباب . وليس محاولة منه لبلوغ المناصب الكبرى بالاستخارة . كما قرر أنه لايعرف أحداً يعلل هذه الأطماع . ومع ذلك فقد عُلِّق فى أداة التعذيب مدة طويلة . ولكن شجاعته الكبرى لم تخنه . وكرر فى غير خوف أقواله السابقة ، ولم يحد عنها مطلقا وعلى ذلك فقد سمح له بالعودة إلى الاسكندرية مسقط رأسه برىء الساحة .

لقد أنقذ الحظ العادل يؤازره الحق هؤلاء وقلة غيرهم من أخطار محدقة . ولكن حيث أن هذه الاتهامات قد إتسع نطاقها عن طريق الشباك المعقدة التى امتدت إلى مدى بعيد . فقد لاقى البعض حتفه بعد أن مُزِّقت أوصاله . وحكم على البعض الآخر بمصادرة الأملاك إلى جانب عقوبات أخرى . وبولس هو مدبر

(١) ليست الأسماء دليلا واضحاً على جنسية أصحابها ، ولذا يصعب أن نلاحظ بصفة عامة أن الاسم المصرى القديم أو الاسم المأخوذ من الأسماء الواردة فى العهد القديم يدل على أن صاحبه مصرى ، كما أن الاسم اللاتينى لا يكون رومانياً فهو مصرى ، فقد اتخذ المصريون الأسماء اللاتينية بكثرة خصوصاً عندما وهب الامبراطور كراكلا حقوق مواطن الرومان لشعوب الامبراطورية سنة ٢١٢ م .

هذه المسرحيات الوحشية ، وكان يمدها بمدد لاينقضى من أنواع المكر والايذاء المختلفة . ولعلى لا أعدو الحق إذ أقول أنه كانت تتوقف على إيماءة منه حياة كل من يسيرون فى الأرض .

فلو أن أحداً من الناس علق فى رقبته رقية ضد الحمى الأربعية أو أى مرض غيرها ، أو اتهم لشهادة شهود الزور بالمشى فى المساء بجوار المدافن على زعم أنه يحضر السموم أو يجمع المرعبات من المقابر ، أو يناجى الصور الهيولية للأرواح التى تهيم فيها ، لحكم عليه بأقصى العقوبة فيموت .

والحق أن هذه المحاكمات قد أديرت دفتها كما لو أن جمهرة من الناس قد توسلت إلى كلاروس [1] وأشجار دورونا [2] وإلى وحى دلفى [3] الذى كان ذائع الصيت فيما مضى أن تميت الامبراطور .

---

(١) كلاروس مدينة فى أيونيه بالقرب من كولوفون كانت مقراً لمهبط وحى أبوللو .

(٢) مدينة من مدن إبيروس فى الشمال الغربى من بلاد اليونان ، وكانت مقراً لمهبط وحى زيوس

(٣) مدينة صغيرة فى مقاطعة فوكيس كان فيها منزل وحى أبوللو .

المسلات

من حوادث عام ٣٥٧ لـ ١٧، ١٠٤ - ٢٢

عندما كان أورفيتوس يشغل مركز الحاكم للسنة الثانية ، نصبت في روما مسلة في الحلبة الكبرى [١] . وسوف استطرد الآن قليلا حول هذا الموضوع فهنا مجاله .

إن مدينة طيبه [٢] التي أنشئت في العصـــور القديمة والتي اشتهرت فيما مضى بضخامة أسوارها ومداخل أبوابها المائة قد أطلق عليها منشئوها لهذا السبب ، ذات المائة باب ، [٣] . وباسمها لا تزال تسمى المقاطعة إلى الآن إقليم طيبه .

وقد دمَّر القـواد الفينيقيون هذه المدينة في هجمة مفاجئة عندما كانت قرطاجنه في المراحل الأولى من توسعها . وأعيد

(١) الحلبة الكبرى لسباق المركبات أقيمت في الوادى الواقع بين تل البلاتين وتل الأفنتين وترجع إلى عصور الملوك الأولى من التاريخ الروماني، وقد أعاد يوليوس قيصر تنسيقها . وقد كانت هذه الحلبة أكبر حلبات السباق في روما ، وتليها حلبة فلامينيوس التي أنشئت سنة ٢٢١ ق . م . في الميدان الحربي ، وتليها حلبة جايوس ونيرون وكانت تقع بالقرب من موقع كاتدرائية القديس بطرس الحالى .

(٢) هي مدينة الأقصر

(٣) قال هوميروس في الألياذه ٩ ، ٣٨١ — ٣٨٤

« لا ولا كل ثروة طيبه المصرية ، التي امتلأت خزائنها أيما إمتلاء ، طيبه ذات المائة باب، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم » .

بناؤها بعد ذلك من جديد . وغزا مصر قمبيز [١] ملك الفرس الشهير وقد كان طيلة حياته ظالما وطائشا وطامعاً فيما لغيره ، فهاجم طيبه ليستلب منها ثروتها المرموقة فلم يكن قمبيز ليتورع حتى عن سلب ما هو موقوف للآلهة .

وفيما هو يضطرب في اهتياج بين قواته التي أعملت النهب ، تعثر في ثوبه الفضفاض وانكفأ على وجهه فانسل خنجره — وقد كان يحمله ملاصقاً لفخذه الأيمن — من غمده من عنف عثرته الفجائية وجرحه جرحاً يكاد يكون مميتاً .

وحدث أيضاً بعد زمن طويل عندما كان أغسطس يحكم روما أن والى مصر كورنيليوس جالوس [٢] كثرت اختلاساته فانتصب

(١) هو ابن دارا حكم الفرس من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٢١ ق . م . وأكبر فتوحاته غزو مصر سنة ٥٢٥ ق . م . حاول غزو قرطاجنة وإثيوبية وواحة سيوة ، ولكنه أخفق في الأولى والثانية وهلك جيشه في محاولة غزو واحة سيوة ، ولعل هذه المصائب المتلاحقة هي التي غيرته من حاكم متزن إلى طاغية ضارى كما صوره هيرودوت ٣ ، ١ — ١٥ . ومات وهو في طريقه إلى سوريا لإخماد ثورة قام بها جوماتا .

(٢) كورنيليوس جالوس (٦٩ — ٢٦ ق . م) كان صديقاً لأغسطس وحارب في جانبه في صراعه ضد أنطونيوس ، فلما حاقت الهزيمة بأنطونيوس في أكتيوم عهد أغسطس إلى كورنيليوس باحتلال مصر ، فأخذ باراتونيوم (مرسى مطروح) وعاون أغسطس في احتلال مصر كلها . ولذلك فقد نصبه أغسطس أول وال روماني على مصر ، حيث أظهر براعته الحربية في قمع ثورتين قامتا في مصر فازدهاه التوفيق ، وبلغ من غروره أنه أقام لنفسه التماثيل ، ونقش اسمه على الأهرام فلما طلب للمحاكمة وأدين قتل نفسه سنة ٢٦ ق . م . أما عن تهمة الاختلاس ، فأغلب الظن أنه شغل بقمع الثورات عن تنظيم الضرائب والاشراف على جمعها فقلت موارد البلاد واتهم باختلاسها .

معين البلاد . ولما رجع إلى روما اتهم بالسرقة ونهب الولاية ، فخاف بطش النبلاء المحنقين[1] الذين عهد إليهم الإمبراطور بتحقيق الواقعة واستل سيفه وارتمى عليه . وهذا — إذا صدق ظنى — هو جالوس الشاعر[2] الذى يرثيه رجيليوس فى الجزء الأخير من قصائده الرعوية[3] ويتغنى به فى نشيد رقيق .

وفى هذه المدينة - طيبه - رأينا بين الهياكل الضخمة والتماثيل المختلفة التى تصور أشكال آلهة المصريين مسلات عدة قائمة وأخرى ملقاة على الأرض مكسورة ، وهى المسلات التى كان الملوك القدامى — وقد ازدهاهم قهر الشعوب فى الحرب أو توفيقهم

---

(١) كان حكم الولايات فى أواخر أيام الجمهورية المتداعية يتيح لطبقة الأشراف فرص الاثراء والمجد ، فلما وطد أغسطس أركان الحكم الامبراطورى ، حرم طبقة الاشراف هذه الفرص ، فحنقت عليه وعلى أعوانه . هذا إلى أن أغسطس رأى أن مصر بلاد غنية متسعة الرقعة يسهل الدفع عنها وذود الأعداء عن حياضها ، ثم إنها حديثة عهد بالفتح ، لم تنس بعد استقلالها ، فلم يرغ إلى إسناد ولايتها لوال من طبقة النبلاء وقرر أن ينصب عليها واليا من طبقة الفرسان هو جالوس ، فلاغرو أن نجد النبلاء الذين كانوا يتوقون إلى مركزه حاقدين عليه .

(٢) لقد بدأ جالوس حياته شاعراً مبرزاً ، وبرع فى فنون كثيرة من الشعر قبل أن ينصرف عنه إلى السياسة والحرب . ولم يبق من شعره إلا النذر اليسير إلا إذا أخذنا بالنظرية القائلة بأنه صاحب قصيدة «سيريس» التى تنسب عادة إلى فرجيليوس ، وقد كتب أربعة كتب فى التشبيب بالممثلة الرومانية فولومنية .

(٣) لقد رثى فرجيليوس صديقه جالوس فى قصيدته الرعوية العاشرة ، ويذهب كثير من النقاد إلى أن الأبيات التى يضعها فرجيليوس على لسان جالوس إنما هى اقتباسات من شعره

فى جلائل الأعمال — قد نحتوها من عروق فى الجبال (أو لعلهم اجتلبوها من عند سكان أقصى المعمورة) وأقاموها هناك وأهدوها فى تقوى إلى آلهة السماء . والمسلة حجر شديد الصلابة يرتفع متضائلا على شكل عمود مخروطى إلى علو شاهق وتزيد نحافته بالتدريج حتى يحاكى شعاع الشمس ، وتنتهى أضلاع المسلة الأربعة فى نقطة مدببة ، وقد صقلت تلك الأضلاع بيد صناع .

أما الأشكال الكثيرة التى تراها محفورة على جوانبها كلها ويسمونها الهيروغليفية فقد اختطها أولو الأمر القدماء فى حكمتهم البدائية .

وهم إذ نحتوا صوراً كثيرة للطير والحيوان — ومنها صور من العالم الآخر — قد سجلوا نذور الملوك ما وعدوه منها وما وفوه ، حتى تصل ذكرى أعمالهم على نطاق واسع إلى أجيال من العصور التالية .

والمصريون القدماء لم يكتبوا كما نكتب الآن بعدد معين صغير من الحروف التى تعبر عن كل ما يمكن للعقل البشرى أن يتصور ، بل إن حروفاً مفردة عندهم تعبر عن أسماء مفردة أو أفعال وقد تعنى أحيانا جملا كاملة[1] .

---

(١) كثيراً ما حاول اليونان تفسير رموز اللغة المصرية القديمة ، أو وصف طريقة المصريين فى الكتابة ، راجع هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل ٣٦ ، وديودور =

أما عن الفكرة فى هذه الكتابة فيكفى لتبيانها الآن مثلان . فهم يعنون بالرخمة [1] الطبيعة لأنه لايمكن — فيما تقول النظريات الطبيعية — أن يوجد بين هذه الطيور ذكور . وهم يدلون على الملك بصورة نحلة [2] تنتج الشهد . مبينين بذلك أن لذعات الحكم ينبغى أن تقترن بالحلاوة فى الحاكم وثمة أمثلة أخرى كثيرة .

وظل المنافقون كدأبهم يتملقون قسطنطيوس ويثرثرون بغير إنقطاع قائلين له أن أكتافيوس أغسطس كان قد جلب من مدينة هيليوبوليس فى مصر مسلتين [3] أقيمت إحداهما فى « الحلبـــة

= الصقلى الكتاب الأول ، الفصل ٧٤ والكتاب الثالث ، الفصل ٤ وفيلون اليهودى «حياة موسى» الكتاب الأول ، الفصل الخامس ، الفقرة ٢٣ ، وبلوتارخوس «إيزيس وأوزيريس» ، وكلمنت السكندرى ، «متفرقات» الكتاب الخامس ، الباب الرابع ، الفصل ٢٠ .

(١) راجع حور أبوللو فى كتابة «الهيروغليفية» ١ ، ١١ حيث قـــون «الرخمة تعنى الأم ، لأنه لايوجد من هذا النوع ذكور . وهى تتوالد على النحو الآتى : عندما تشتهى الرخمة الحبل تعرض أعضاءها التناسلية للريح الآتى من الشمال فيخصبها مدة خمسة أيام ، ولا تتناول فى هذه الفترة طعاماً أو شراباً» .

(٢) راجع حور أبوللو «الهيروغليفية» ١ ، ٦٢ حيث يقول «وهم يرسمون نحلة ليعبروا عن شعب خاضع للملك . لأن النحل دون سائر المملكة الحيوانية له ملك يتبعه النحل كله كما يطيع الشعب الملك » ثم يلى ذلك كلام غير متصـــل فيه إشارة للعسل والحزم الادارى .

(٣) ذكر بلينيوس فى كتابه « التاريخ الطبيعى » (١٤،٣١) أن أغسطس نقل من مصر مسلتين إلى روما . والمسلتان إلى اليوم فى روما إحداهما تحوتمس الرابع والأخرى لأبسماتيك .

الكبرى » والأخرى فى « الميدان الحربى » وأنه لم يجرؤ أن يقرب أو يحرك تلك المسلة التى نقلت حديثاً إلى روما لخوفه مما تثيره ضخامتها من صعوبات .

وليعلم من لم يكن يعلم أن هذا الإمبراطور القديم بعد أن نقل بعض المسلات إلى روما مر بهذه المسلة وتركها مكانها لأنها كانت مهداة لإله الشمس كهدية خاصة . ولأنها كانت قائمة داخل حرم معبده الفخم الذى لايجوز تدنيسه ، ولذلك ظلت فى مكانها سامقة كأنها ذروة الدنيا .

أما قسطنطين فلم يعبأ بهذه الاعتبارات إلا قليلا ، فانتزع العمود الضخم من قاعدته وقد كان يعتقد - بحق - إنه لا يرتكب وزراً ضد الدين إذا رفع المسلة من أحد المعابد وأقامها فى روما أى فى معبد العالم كله ، وقد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة ريثما أعدت أدوات رفعها . فلما حملت على ماء النيل ووصلت إلى الإسكندرية ، ابتنيت لها سفينة فى حجم لم يعهد من قبل يدفعها ثلثماية مجداف .

وما أن أعدت هذه المعدات حتى فارق الامبراطور قسطنطين الحياة [1] ، وبردت الحماسة للمشروع ، وأخيراً وبعد تأخير طويل ،

---

(١) إن ذكر المصائب التى حاقت بقمبيز ، ومصرع جالوس ، وموت الامبراطور قسطنطين قبل نقل المسلة ، يجعل من هذه الرواية أولى الاشارات إلى «لعنة الفراعنة» .

وضعت المسلة فى السفينة وأجريت على البحر إلى نهر التيبر الذى بدا كأنه يخشى ألا يقوى على دفع تلك الهدية التى أرسلها نهر النيل — الذى يكاد يكون مجهول المنابع — إلى حدود المدينة التى تباها. ولكن المسلة وصلت إلى قرية الاسكندرية [١] التى تبعد ثلاثة أميال عن مدينة روما. ومن هناك وضعت على حوامل وجرت بحذر داخل بوابة أوستيا [٢] عبر حى بسكينا العام [٣] ومنه نقلت إلى «الحلبة الكبرى».

وبعد ذلك لم يبق إلا رفعها، وقد كان مفهوماً أنه لن يمكن تحقيقه إلا بشق الأنفس ان أمكن على الاطلاق. ولكنه تحقق على النحو الآتى: فقد جهزت عمد خشبية طويلة وأقيمت منتصبة عمودية فكأنك كنت ترى غابة من حوامل، وربطت إليها حبال طويلة متينة على هيئة شبكة سميكة غطت وجه السماء لكثافتها الشديدة. وربطت فيها تلك الكتلة المزينة بالحروف المحفورة، ورفعت بالتدريج عالياً فى الفضاء، وظلت تتأرجح مدة طويلة بينما كانت آلاف عديدة من العمال تدير أقطاباً كأقطاب الرحى، ثم أرسيت وسط ساحة الميدان ثم وضعت فوقها كرة من البرونز كسيت

---

(١) لقد أمحت آثار هذه المدينة ولا يعرف موقعها الآن بالضبط.

(٢) هى البوابة التى تقع على رأس الطريق المؤدى من ثغر أوستيا عند مصب نهر التيبر إلى روما.

(٣) هو الحى المجاور لبحيرة صيد السمك العامة الواقعة عند بوابة كابينا.

بطبقة ذهبية لامعة. ولكن سرعان ما أطاحت بها صاعقة قوية، فاستبدلت بشكل برونزى يمثل مشعلا مكسياً بطبقة من الذهب تلمع كأنها لهب شديد.

وقد نقلت الأجيال التالية مسلات أخرى، نصبت إحداها [١] فى الفاتيكان وأخرى [٢] فى حدائق سالوست وإثنتان [٣] فى ضريح أغسطس.

وسأضيف الآن ترجمة يونانية لبعض الكتابات المحفورة فى المسلة القديمة التى نراها اليوم فى «الحلبة الكبرى» [٤] ناقلا [٥] من

---

(١) هى الآن أمام كاتدرائية القديس بطرس وطولها حوالى ٢٥ متراً وليس عليها كتابة هيروغليفية. وقد نقلها من مصر إلى روما الامبراطور جايوس قيصر «كاليجولا» الذى حكم روما من سنة ٣٧ إلى سنة ٤١ بعد الميلاد. وقد أقامها أولا فى «حلبة كاليجولا» التى سميت فيما بعد «حلبة نيرون» غير بعيد من المكان الذى تنتصب فيه الآن.

(٢) المسلة الآن فى ميدان ترينيتا دى مونتى وطولها ١٣ متراً.

(٣) إحداها الآن أمام كنيسة سانتاماريا مايورى وطولها ١٤ متراً، والأخرى على تل الكويرينال وهى أصغر من الأولى قليلا وليس عليهما كتابة هيروغليفية.

(٤) هذه المسلة هي أطول المسلات التى فى روما فطولها حوالى ٣٢ متراً. ولهذه المسلة تاريخ. فأغلب الظن أن تحوتمس الثالث أراد أن تقوم أمام البوابة الجنوبية فى معبد الكرنك ولكنه مات قبل أن تنقش فظلت خمسة وثلاثين عاما فى أيدى العمال الفنيين، ثم أقامها حفيده تحوتمس الرابع ونقش عليها الإهداء الذى أراده جده وأضاف اليه من عنده تاريخ المسلة إلى ذلك الحين، وقرر بجلاء أن هذه أول مرة تقام فيها مسلة مفردة. والحدث التالى فى تاريخ هذه المسلة هو نقلها إلى الاسكندرية بقرار من الامبراطور قسطنطين. وبعد ذلك نقلت إلى روما بأمر الامبراطور قسطنطيوس سنة ٣٥٧ بعد الميلاد، ونصبت فى الحلبة الكبرى.
ثم وقعت المسلة وغطتها الأتربة وضاعت آثارها الى أن اكتشفت من جديد سنة ١٥٥٨، وكانت مكسورة ثلاث قطع فرممت وأقيمت فى ميدان اللاتيران بأمر البابا سكستوس الخامس وتحت إشراف المهندس فونتانا.

(٥) لم يكلف أميانوس نفسه عناء نقلها الى اللاتينية فأوردها كما هى باليونانية.

كتاب هرمايون [1] .

البداية من الناحية الجنوبية

السطر الأول ترجمته هكذا

« الشمس [2] تتحدث إلى الملك راميستيس . لقد أنعمت عليك بأن تحكم العالم كله راضياً . أنت يامن تحبه الشمس وأبوللو [3] القوى محب الصدق إبن هيرون [4] المولود من الله ، خالق العالم صفى الشمس الشجاع إبن آريس [5] الملك راميستيس الذى دانت له الأرض كلها بشجاعته وإقدامه ، الملك راميستيس إبن الشمس الخالدة » .

السطر الثانى

« أبوللو القوى ، الجالس على عرش الحق ، رب التاج ، الذى امتلك مصر فكرمها ، وجمل هليوبوليس [6] وخلق سائر

---

(١) يبدو أن هرمايون كان معاصراً للامبراطور أغسطس
(٢) الشمس تعنى هليوس فى اليونانية وهى تساوى الإله رع
(٣) أبوللو هو الإله حورس
(٤) هيرون يقابل الإله المصرى آتوم
(٥) آريس عند اليونان يقابل الإله شو عند المصريين
(٦) تعنى مدينة الشمس ومكانها الآن المطرية .

العالم ، وأضفى صنوف التكريم على الآلهة المقيمة فى هليوبوليس ، والذى تحبه الشمس » .

السطر الثالث

« أبوللو القوى ابن الشمس المتوهجة ، الذى أصطفته الشمس وأنعم عليه آريس الشجاع ، وسوف تدوم نعمته إلى الأبد ، الذى يحبه آمون لأنه ملأ معابده بأطيب ثمار النخل والذى أنعمت عليه الآلهة بالعمر الطويل » .

« أبوللو إبن هيرون القوى ، راميستيس ملك العالم الذى حمى مصر فغزا سائر الشعوب ، الذى تحبه الشمس ، والذى أنعمت عليه الآلهة بالعمر الطويل ، سيد العالم راميستيس الخالد » .

الناحية الغربية

السطر الثانى [1]

« الشمس الإله العظيم ، رب السماء ، لقد أنعمت عليك بحياة لاتنتظر ، أبوللو القوى رب التاج غير منازع ، الذى أقام فى مملكته تماثيل للآلهة ، سيد مصر الذى كرم هليوبوليس (مدينة

---

(١) الابتداء بالسطر الثانى لايعنى بالضرورة أن السطر الأول ضائع ، فان أميانوس يقتطف نتفاً صغيرة على سبيل المثال .

الشمس) تماماً مثلما كرم إله الشمس نفسه ، رب السماء ، لقد أتم العمل الصالح ابن الشمس الملك الخالد »

السطر الثالث

« من إله الشمس ، إله السماء إلى الملك رامسيس ، لقد أنعمت عليك بالحكم والسلطان على الناس كلهم ، أنت الذى اختارك أوللو محب الصدق وسيد الفصول ، وهيفايستوس [1] أبو الآلهة من أجل آريس ، أنت الملك التام الرضا ابن الشمس المحبوب من الشمس »

الناحية الشرقية

السطر الأول

« إله هليوبوليس العظيم السماوى أبوللو القوى ابن هيرون الذى أحبته الشمس والذى كرمته الآلهة المسيطر على الأرض كلها . الذى اختارته الشمس ملكاً شجاعاً من أجل آريس ، الذى يحبه آمون [2]

---

(١) الاله هيفايستوس عند اليونان يقابل عند المصريين الاله أتوم — رع فى هليوبوليس والإله بتاح فى منف

(٢) إن أسلوب هذه الترجمة وروحها يدلان على أن هرمابيون ، وقد كان كاهناً مصرياً ، قد ترجم فعلا نقشاً على مسلة ما ، لم يوفق إلى العثور عليها إلى الآن . ترجمة هرمابيون هذه التى نقلها أميانوس على أنها ترجمة نقوش مسلة تحوتمس الثالث لا تمت إلى نص هذه المسلة بأى سبب وتثبت هنا ترجمة نص مسلة تحوتمس الثالث

والإله المنير بعد أن اختار الملك الخالد . إلى آخره .

نقلا عن ترجمة برستد « الوثائق القديمة » . الجزء الثانى ص ٢٥٢ .

الاهـــداء

الجانب الجنـــوبى

« تحوتمس أقامها نصباً لأبيه أمون رع سيد طيبه ، مقيما له مسلة واحدة فى الفناء الخارجى للمعبد أمام الكرنك . وهى المرة الأولى التى تقام فيها مسلة واحدة فى طيبه ، وذلك ليحظى بالخلود »

الجانب الشمالى

« تحوتمس الثالث ابن أمون رع من جسمه الذى ولدته له موت فى إشرو ، صاحب الأطراف نفسها التى لسواه ، ابن رع ، تحوتمس ، جميل الوجه ، حبيب أمون رع سيد طيبه ، الموهوب الحياة ، مثل رع »

الجانب الشرقى

« تحوتمس الثالث الذى أكثر من العجب فى بيت أمون ، والذى جعل نصبه أعظم من تلك التى شيدها أسلافه الذين كانوا قبله ، والذى فاق كل ما كان ، غير محاك لشىء مما أقيم فى بيت أمون ، وذلك حتى يحظى ابن رع تحوتمس سيد هليوبوليس بالحياة عن طريقه »

الجانب الغربى

« تحوتمس الثالث الذى يمجد أمون عندما يقوم فى الكرنك ، ويرسل أمون للراحة فى البيت ذى الوجهين ، يفرح قلبه بالنصب المقامة ، إنه الحبيب الباقى فى الملك (وهذا هو الاسم الثانى لتحوتمس الثالث) .
إجعله يبقى ويكرر لك الاحتفال بهذه المهرجانات العديدة .
ابن رع ، تحوتمس ، جميل الوجه ، الموهوب الحياة »

• هذا النقش يشغل السطور الوسطى من المسلة ، أما نقش تحوتمس الرابع فيشغل السطور الجانبية . وقد أصابها كلها الكثير من التلف من جراء أعمال الترميم التى قام بها مهندسو البابا .

موت الإمبراطور قنسطنطيوس

من حوادث عام ٣٦١ . ك ٢٢ ، ٦ ، ١ — ٤

فى هـذه الآونة[1] بالذات استثارت المصريين الشائعات المختلفة ، فجاء جمع غفير منهم ، وهم قوم محبون للمخاصمة ، ويفرحون أشد الفرح بما اعتادوه من المقاضاة المعقدة ، وهم شغوفون بوجه خاص بدعاوى الاسترداد المضاعف إذا ما أدوا دينا لصاحبه . وذلك إما ليتيسر لهم أن يتنصلوا مما عليهم ، أو على الأقل ليؤجلوا سداده إلى فرصة أكثر ملاءمة لهم ، ولعل ذلك لحرصهم على إسناد تهمة الابتزاز إلى الأغنياء منهم ، أو للضغط عليهم بتهديدهم باتخاذ الإجراءات القضائية[2] .

هذا الجمع الغفير تكتلوا وراحوا يلغطون كالغربان ، وظلوا يقاطعون فى غير مقتض الامبراطور نفسه وقواد الحرس

(١) أى عندما مات قنسطنطيوس سنة ٣٦١ واعتلى يوليانوس الوثنى عرش الامبراطورية .

(٢) كانت شكوى المصريين من فداحة الضرائب ، ولهذا وجهوا اتهاماتهم إلى والى مصر يومئذ واسمه أرتميوس .

الامبراطورى مطالبين إما بحق أو بغير حق بما إدعوا أنهم دفعوه لأفراد كثيرين قبل حوالى سبعين سنة[1] .

وحيث أنهم عرقلوا إنجاز الأعمال الأخرى ، فقد أصدر الامبراطور قراراً أمرهم كلهم فيه أن يتوجهوا إلى خاليدونيه ووعدهم بأنه سيذهب شخصياً من فوره إلى هناك ليقضى فى مطالبهم ، فما أن غادروا القسطنطينية حتى صدر الأمر إلى ربابنة السفن التى تمخر البحر إلى هذا الثغر ومنه بألا يجرؤ واحد منهم فينقل مصرياً واحداً على مركبه . وحيث أن هذا القرار قد نُفِّذ بكل دقة فقد انتهت تلك المحاولة الملحة للضغط على الامبراطور ورجعوا كلهم إلى بيوتهم بعد أن فقدوا ما كانوا يعللون من آمال[2] .

ولذلك فقد صدر قانون ـ كأنه من وحى آلهة العدالة نفسها ـ ينص على أن المترافع أمام البلاط لا يسأل فى أموال يثبت أنه قبضها بوجه حق[3] .

(١) يظهر أن أكثر أعضاء الوفد كانوا من وثنيى مصر ، لأنهم قصروا شكواهم على المدة التى كانت الامبراطورية فيها تحت حكم أباطرة من المسيحيين ، وذلك فى الخمس والخمسين سنة السابقة لحكم يوليانوس .

(٢) بالرغم من المهانة التى تعرض لها الوفد فلم تذهب جهوده أدراج الرياح فقد عوقب أرتميوس بالموت لأنه لم يستطع دحض اتهامات الإسكندريين .

(٣) يوجد نص هذا القانون فى مدونة تيودوسيوس ، الجزء الثانى ، الفصل ٢٩

مصرع جيورجيوس

من خوادث عام ٣٦٢ . ك ٢٢ ، ١ ، ١١

وفى ذلك الوقت إستدعى[١] كل من الوزير جاودنتيوس الذى سبق أن ذكرت[٢] أن قسطنطيوس كان قد أوفده لمناهضة يوليانوس فى أفريقية ومن المدعو يوليانوس الذى كان نائب حاكم فيما سبق ، وهو رجل شديد العنف ومن حزب قسطنطيوس[٣] . فأحضرا مكبلين فى الأغلال وعوقبا بالموت .

وفى هذا الوقت أيضاً وقعت على أرتميوس الذى كان قائداً عسكرياً فى مصر عقوبة الإعدام ، لأن أهل الإسكندرية إتهموه بطائفة من الجرائم الفظيعة . ومن بعده نفذ حكم الإعدام علناً فى إبن ماركيللوس الذى كان فيما سبق قائد الفرسان والمشاة ، لإتهامه بالتطلع إلى العرش ، هذا وقد سيق إلى المنفى كل من

(١) أمضى يوليانوس الشتاء فى أنطاكية ونظر هناك فى بعض القضايا ، فلعلهم إستدعوا إليها .

(٢) ذكره فى ٢١ ، ٧ ، ٢

(٣) أى من أنصار مذهب آريوس

رومانوس وفينكنتيوس[١] قائدا كتيبتى النبالة والنشاب الأولى والثانية ، لإدانتهما ببعض التصرفات التى لا تدخل فى اختصاصهما .

وكان الإسكندريون يرهبون أرتميوس ويخشون أن يعود إلى الإسكندرية بنفوذه من جديد (كما هدد بذلك فعلا) فيسوم من إتهموه سوء العذاب . فلما علموا بموته ، لم يمض إلا وقت قصير حتى وجهوا غضبهم نحو جيورجيوس الأسقف الذى كثيراً ما جعلهم يذوقون لدغاته السامة كما يقولون .

وقد ولد جيورجيوس هذا فيما يقال فى حانوت قصار فى إيبفانيا[٢] وهى مدينة من أعمال كيليكية وزادت ، ثروته من مصادرة أموال الناس . وقد نُصّب ضد مصلحته الخاصة وضد الصالح العام أسقفاً للاسكندرية وهى المدينة التى كثيراً ما تجنح من تلقاء نفسها وبغير ماداع إلى الثورات والفتن مما تقرره شهادة الوحى نفسه[٣] .

وكان جيورجيوس نفسه قد زاد نفوس هؤلاء الناس الملتهبة إشتعالا بأن راح بعد تنصيبه أسقفاً يصب فى آذان قسطنطيوس

(١) كان رومانوس وفنكنتيوس من أنصار أثناسيوس وكان قرار الامبراطور قد صدر بنفيه فى ذلك الحين ولعلهما تهاونا فى القبض عليه أو عاوناه على الفرار .

(٢) قال أثناسيوس أنه من كبادوكيا

(٣) ليس هناك من مصادر تشير إلى هذا الوحى .

الصاغية الاتهامات ضد الكثيرين بأنهم متمردون على حكمه ، وانحط فى ذلك إلى أساليب الوشاة الدنيئة ناسياً طبيعة وظيفته التى لا تحض إلا على العدل والرحمة .

وقيل فيما قيل أنه أخبر قسطنطيوس بدوءنية أن كل المنشآت القائمة على أرض الإسكندرية قد ابتناها مؤسسها الإسكندر بمبلغ ضخم من الأموال العامة ، وأنها ينبغى أن تكون بحق مصدر كسب للخزانة العامة .

وأضاف إلى سيئاته هذه السيئة التى نذكرها الآن وهى التى ألقت به إلى التهلكة بعد قليل . ذلك أنه لما عاد من زيارة الأمبراطور ومر بمعبد جينيوس[1] الضخم ، وكان يحف به كالعادة رهط كبير من الناس ، أدار عينيه نحو المعبد وقال « إلى متى تظل هده المقبرة قائمة ؟ » فلما سمعوا هذا ذهل الكثيرون وكأنما قد أصابتهم الصاعقة وخشوا أن يعمل على هدم هذا المعبد أيضاً . ودبروا المؤامرات السرية لاغتياله بأى وسيلة .

ولذلك فما أن جاء فجأة النبأ السار القائل بموت أرتميوس حتى صر الشعب كله أسنانه وقد ازدهاه هذا الفرح غير المأمول وأطلق هتافاً مرعباً ، وراح يطلب جيورجيوس ، وقبض عليه

---

(١) هو معبد حامى المدينة

وأذاقه ألواناً من التعذيب وجره على الأرض ووطأه بالأقدام وشد رجليه فقتله .

وكان معه دراكونتيوس مدير دار السكة والمدعو ديودوروس الذى كان بمثابة كونت ، فشدّت أرجلهما بالحبال وقتلا معاً . أما الأول فلأنه هدم محراباً أقيم حديثاً فى دار السكة التى كانت تحت إشرافه . وأما الآخر فلأنه عندما كان يشرف على بناء كنيسة قد أباح لنفسه أن يجز شوشة[1] بعض الصبية معتقداً أنها من الطقوس الخاصة بعبادة الآلهة .

ولم يقف الشعب وقد جن جنونه عند هذا الحد ، بل وضع أشلاء القتلى فوق الجمال ، وحملها إلى شاطئ البحر وهناك أحرقها فى النار وألقى بالرماد فى البحر ، إذ خشى فيما قال أن تجمع بقاياهم وأن تبنى فوقها الكنائس كما حدث لغيرهم[2] من الذين فرض عليهم الارتداد عن دينهم فاحتملوا أشنع العقوبات حتى أنهم تقدموا إلى الموت المجيد بعقيدة نقية وهم يسمون الآن بالشهداء .

وكان من الممكن أن يتلقى هؤلاء البؤساء الذين تعرضوا

---

(١) كانت «الشوشة» فى عهد الدولة الحديثة من سمات الملوك الشبان ، ثم صارت أيام البطالمة من علامات كرم المحتد ، وصارت أيام الرومان شائعة بين الناس كلهم .

(٢) يشير إلى من إستشهدوا فى الاضطهادات السابقة وخاصة فى عهد الامبراطور دقلديانوس .

لأشنع التعذيب النجدة من المسيحيين لولا أن الناس كلهم بغير
إستثناء كانوا شديدى الكراهية لجيورجيوس .

ولما سمع الامبراطور بهذه الفظائع ، قرر أن يقتص لهذه الجرائم الشنعاء ولكن بطانته هدأت ثورته وأشارت بالرأفة عندما هم بتوقيع أقصى العقوبة على المجرمين . ومن ثم فقد أصدر قراراً أعلن فيه سخطه على الجريمة المقترفة فى أسلوب عنيف ، وهدد بأقصى العقوبات كل من تسول له نفسه فى المستقبل أمراً يجافى العدالة والقوانين [1] .

(١) لقد إستغل جيورجيوس ثروته ونفوذه فى جمع مكتبة كبيرة غنية بمؤلفات المؤرخين والخطباء والفلاسفة من مختلف المذاهب الفكرية والمدارس الأدبية . وقد أرسل الامبراطور يوليانوس بعد اغتيال جيورجيوس رسالة لوالى مصر ولصديقه فورفوريوس تلميذ أفلوطين ليرسلا له هذه الكتب فى كادوكيا ، ووعد أمين المكتبة بالحرية إن سلمها كاملة وهدده بالتعذيب إن أخفى الكتب كلها أو بعضها . وطلب ألا يعدم كتاب من الكتب مهما غالى فى مدح المسيحية حتى لا يضيع السمين مع الغث من الكتب .

العجل أبيس

من حوادث عام ٣٦٣ . ك ٢٢ ، ١٤ ، ٦ — ٨

عندما فرغ الامبراطور يوليانوس من إقامة الشعائر المقدسة وغادر جبل كاسيوس [1] ، رُفع إليه كتاب من والى مصر يقول فيه إنه بعد مجهود شاق قد أمكن أن يجدوا أخيراً بعد ردح من الزمن عجل أبيس [2] وهو أمر فيما يعتقد سكان مصر يبشر بالرخاء ووفرة المحاصيل ومختلف الخيرات .

ويحسن هنا أن نفيض قليلا فى هذا الموضوع .

من أشهر الحيوانات التى قدستها الشعائر القديمة منيفيس وأبيس ، أما منيفيس [3] فمقدس للشمس وليس فيما يقال بشأنه مايستحق الرواية ، وأما الآخر فمقدس للقمر [4] . فأبيس إذن عجل

(١) هو كثيب الفلس الاد

( ) ورد ذكر أبيس فى هيرودوت ك ٣ ، الفصل ٢٧ الفقرة ٢٨
و ديودور الصقلى ك ١ ، » ٢١ » ١٠
و استرابون ك ١٧ ، » ١ » ٣١
و ليدوس ك ٨ الفقرة ١٨٤ وما بعدها .

(٣) سبق أبيس إلى الوجود ولكنه أهمل فيما بعد وكان معبده فى هليوبوليس .

(٤) وقدس فيما بعد للشمس أيضا ، راجع ماكروبيوس ك ١ فصل ٢١ فقرة ٢٠

يمتاز بعلامات طبيعية مختلفة [١] وأخص مايتميز به شكل هلال على جانبه الأيمن . وعند ما يقضى هذا العجل أجله المعلوم [٢] — إذ لايحل له أن يمد أجله بعد الحد الذى ترسمه له نواميس الكتب المقدسة — يُلقى به فى البحيرة المقدسة [٣] فيلقى حتفه . وتذبح فى حفلة مماثلة بقرة تتميز بعلامات خاصة وتهدى إليه . وبعد أن ينفق العجل يجرى البحث عن أبيس آخر وسط حداد عام ، فإذا أمكن العثور على عجل تام المميزات ، يساق إلى منف وهى مدينة تشتهر بكثرة تجلى الإله ايسكولابيوس فيها .

وعندما يساق العجل إلى المعبد فى موكب مؤلف من مائة كاهن . يصبح مقدساً بمجرد دخوله إلى مقصورته ، ويقـــال إنه ينبىء بإشارات جلية إلى ماسوف يقع من أحداث ، ويبدو أنه يصد عن بعض زائريه بشكل غير مرضى . فقد حدث فيما قرأت [٤] أنه صدف عن قيصر جرمانيكوس عند ماكان يقدم له الطعام ، فأفصح بذلك عما كان يوشك أن يحيق به بعد قليل [٥] .

(١) كانت هذه العلامات المميزة تسعا وعشرين علامة

(٢) أى خمسة وعشرين عاماً

(٣) كان موقع البحيرة المقدسة سراً موقوفاً على الكهنة وحدهم

(٤) لعله قرأ هذا الخبر فى بلينيوس ك ٨ فقرة ١٨٥ حيث يقول «وهو (أبيس) يعطى الاجابات للناس بتناول الطعام من أيدى مستفتيه ، وقد انصرف عن يد جرمانيكوس قيصر ، الذى اغتيل بعد ذلك بوقت قصير» .

(٥) يقال إن جرمانيكوس اغتيل فى مصر سنة ٤٩ بعد الميلاد وقد عزيت هذه الجريمة إلى بيزو حاكم سوريا وقتئذ . ولكن المؤرخ تاسيتوس أثبت فى كتابه «الحوليات» ك ٢ فقرة ٦٩ أن جرمانيكوس مرض بعد رجوعه من مصر .

وصف مصر

من حوادث عام ٣٦٣ . ك ٢٢ ، ١٥ ، ١ — ٣٢

وتمشياً مع مقتضى المقام ، لنتناول الآن باختصار الموضوعات المصرية التى تناولتها بإسهاب [١] فى حديثى عن أعمال هادريانوس [٢] وسيفيروس [٣] ، راويا فى الأغلب ماشاهدت بنفسى .

الشعب المصرى هو أقدم الشعوب طراً ، إلا أن تكون المنافسة بينه وبين الاسكيثيين [٤] على العراقة . ويحيط به من ناحية الجنوب خليج سرته ورأسا فيكوس وبوريون وقبيلة الجارامنتيين وشعوب أخرى مختلفة . وتمتد مصر فى ناحية الشرق إلى الفنتين ومروى — وكلتاهما من المدن الإثيوبية — والى الشلالات والبحر الأحمر وعرب سيناء الذين نسميهم الآن الشرقيين [٥] أما من

(١) إن الكتب التى تناول فيها الموضوعات المصرية بإسهاب قد ضاعت

(٢) الامبراطور هادريانوس حكم من سنة ١١٧ إلى سنة ١٣٨ وزار مصر سنة ١٣٠ بعد الميلاد

(٣) الامبراطور سبتميوس سيفيروس حكم من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢١١ وزار مصر سنة ٢٠٠ بعد الميلاد .

(٤) هم سكان جنوبى روسيا

(٥) وصف أميانوس العرب الرحل الذين سماهم الشرقيين فى الكتاب ١٤ فصل ٤ ، الفقرة ١ — ٧

ناحية الشمال فمصر تكوّن جزءاً من الرقعة المترامية التى تبدأ منها آسيا والولايات السورية، ويحدها من الشرق البحر الايسياكى الذى سماه البعض البحر البارثنى [٦].

ومن المناسب هنا أن نشير باختصار إلى أكرم الأنهار قاطبة وهو نهر النيل الذى يسميه هوميروس أيجيبتوس [٧]، ثم نصف سائر مايثير الاعجاب مما يوجد فى هذه البلاد.

إن منابع النيل [٨] ستظل — فيما استقر فى روعى على الأقل — مجهولة فى الأجيال القادمة كما هى الآن. ولكن حيث أن الشعراء المبدعين والجغرافيين لايستقرون على رأى، وهم يدلون بآراء متضاربة فى هذا الموضوع المبهم، فسوف أسوق فى كلمات قليلة من آرائهم ما أعتقد أنه يقارب الحقيقة.

فبعض الفلاسفة الطبيعيين يذهبون إلى أن الشتاء البارد فى الجهات الشمالية يجمد كل شىء، ويكون كتلاً كبيرة من الثلج تذوب

---

(٦) هو الجزء الشرقى من البحر المتوسط بين مصر وفرس

(٧) راجع الأوديسية ك ٤ البيت ٤٧٧

(٨) راجع فى وصف النيل وأسباب فيضانه

هيرودوت ك ٢ فصل ١٩

وديودور الصقلى ك ١ « ٣٦

واسترابون ك ١٧ « ١

وبلينيوس ك ٥ « ٥١ وما بعده

بفعل الشمس المتوهجة فتكون سحاباً مشبعاً بالرطوبة الزائدة فاذا دفعتها الرياح الموسمية صوب الجنوب هطلت الأمطار بتأثير الحرارة الشديدة وسببت فيما يعتقدون الزيادة الكبيرة فى ماء النهر.

ويذهب آخرون إلى أن الأمطار الإيثيوبية التى يقال إنها تسقط بغزارة فى تلك المناطق فى فصل الحرارة القائظة هى السبب فى فيضان النهر فى أوقات معلومة من السنة. ويبدو أن كلا من هذين الرأيين يجافى الحقيقة، إذ يقال إن الأمطار لاتسقط البتة فى إيثيوبية أو أنها تسقط على فترات متباعدة.

وثمة رأى أكثر ذيوعا من هذين الرأيين يذهب إلى أن الرياح الرائدة [١] وبعدها الرياح الموسمية تهب لمدة خمسة وأربعين يوما متتالية، فتصد تيار النهر وتقلل سرعته فيرتفع ماؤه. وفيما تغالبه الرياح المضادة يرتفع ماؤه أكثر فأكثر حيث أن قوة الريح تدفعه إلى الوراء وتيار مياهه الجارف يدفعه إلى الأمام، فإذا علا غطى كل شىء، وغمر الأرض فى السهول والوديان وبدا كأنه بحر لجى.

ويذهب الملك جوبا، معتمداً على نصوص الكتب الفينيقية، إلى أن النيل ينبع من جبل واقع فى موريتانيا [٢] ويطل على المحيط، ويقول إن الأدلة على صحة هـــذا الرأى أن الأسماك والنباتات

---

(١) تهب قبل الرياح الموسمية بثمانية أيام.

(٢) مكانها الآن مراكش

والحيوانات التى توجد فى تلك المستنقعات تشبه مايوجد منها فى حوض النيل .

ويتخذ النيل فى مجراه خلال البلاد الايثيوبية الأسماء المختلفة التى تطلقها عليه الشعوب المختلفة أثناء انسيابه فى أراضيها . وهو يتقدم بمائه الغزير الثرى حتى يصل إلى الشلالات ـ وهى صخور شديدة الانحدار ـ وينحدر منها متدفقاً أكثر منه منساباً . ومن هنا ألجأت الضرورة قبيلة الآتيين — الذين كانوا فيما مضى يسكنون بالقرب من النهر فقلت حاسة السمع عندهم من استمرار الضوضاء — إلى النزوح عن أراضيها إلى أراض أكثر هدوءاً .

وبعد الشلالات ينساب النهر بلطف ، ويصب فى البحر خلال مصبات سبعة كل منهما كالنهر القائم برأسه فى مظهره وفائدته . وليس للنهر فى مجراه فى مصر روافد خارجية تزوده بالماء مطلقا . وهذه الفروع السبعة ـ وهى غير القنوات العديدة التى تخرج من فروع رئيسية وتصب فى غيرها وتكاد تضارعها اتساعا ـ صالحة للملاحة وكثيرة الأمواج وقد أطلق عليها القدماء الأسماء الآتية : الفرع الهرقلى والسبنيتى والبوليبطى والفاتنيتى والمنديسى والتانيسى والپيلوزى [1] .

(١) لايتفق الكتاب على أسماء المصبات كلها فالفرع الهرقلى يسمى أحيانا الفرع الكانوبى وأحيانا الفرع النقراطيسى

ينبع النهر إذن من هناك كما ذكرنا ويسير من المستنقعات [1] حتى يصل إلى الشلالات ويكون جزائر كثيرة يتسع بعضها فيبلغ حداً من السعة بحيث أن تيار النهر لايعبر الواحدة منها فى أقل من ثلاثة أيام .

وتشتهر من هذه الجزائر إثنتان هما مروى والدلتا ، ومن الواضح أن الدلتا اتخذت إسمها من شكل الحرف الهجائى اليونانى المثلث « دلتا » .

وعند ما تقع الشمس فى مدار السرطان يبدأ النهر فى الزيادة ويستمر مائة يوم إلى أن تتحول الشمس إلى الميزان [2] ثم ينخفض بعدها ، وعندما يقل ماؤه يكشف عن السهول التى كانت وقت فيضانه صالحة للملاحة وأصبحت الآن بعد إنحسار مائه صالحة لركوب الخيل .

ومهما يكن من شىء فإن ضرر الفيضان المرتفع يعادل ضرر الفيضان المنخفض . لأن النهر فى الحالة الأولى يغمر الأرض مدة طويلة جداً بمائه الغزير فيؤخر حرث الحقول ، كما أن الفيضان المنخفض يهدد البلاد بمحصول ضعيف . ولا يتمنى مالك قط أن يرتفع النهر أكثر من ست عشرة ذراعاً . وإذا اتفق أن كان الفيضان

(١) يبدو أن أميانوس يأخذ نظرية الملك جوبا فى أسباب الفيضان .
(٢) أى من الانقلاب الصيفى إلى منتصف الخريف .

منوسطا فقد تؤتى الحبوب التى تبذر فى أرض خصبة قرابة ...ين ضعفاً. والنيل هو النهر الوحيد فى العالم الذى لا يثير رياحا مطلقا.

ومصر غنية بالحيوانات المختلفة، منها البرية ومنها البحرية ومنها ما تعيش فى البر والبحر ومن هنا تسمى الحيوانات البرمائية. وفى السهول الجافة يرعى الغزال والجاموس والاسبرنتورنيقية [1] وهى تثير الضحك لشدة قبحها، وغيرها من الحيوانات التى لا يعنينا ذكرها الآن.

ومن الوحوش المائية التمساح [2] وهو كثير فى كل أنحاء هذه البلاد، وهو وحش ذو أربع فتاك خبيث، يعيش على اليابسة وفى الماء على السواء. وليس له لسان ويحرك الفك العلوى فقط. وأسنانه مصفوفة كالمشط وهو يلج فى افتراس كل ما يلاقى بعضات مهلكة. ويلد التمساح صغاره من بيضات تشبه بيض الأوز.

فإذا علمت أن له أصابع أيضا إلى جانب ما زود به من مخالب عرفت أنه يقوى حتى على قلب السفن بيأسه الشديد. ويبلغ أحيانا الثمانى عشرة ذراعاً طولا، وفى الليل يستكن فى الماء، أما فى النهار فيتشمس على الأرض معتمداً على صفاقة جلده الذى يبلغ

---

(١) لعلها نوع من القردة

(٢) راجع فى وصف التماسيح هيرودوت ك ٢ ، ٦٨ — ٧٠ وديودور الصقلى ك ١ ، ٣٥

من الغلظة أن ضربات المدافع لا تكاد تنفذ فى جلد ظهره السميك.

وبالرغم من أن التماسيح ضارية على الدوام، فإنها تنبذ ضراوتها وتهـدأ كأنما عقدت هدنة عسكرية طوال أيام العيد السبعة التى يحتفل فيها كهنة منف ببلاد النيل [1].

وتهلك التماسيح بعضها بموت طارئ، وبعضها تبقر بطونها الرقيقة الزعانف الظهرية المسننة لوحوش تشبه الدلفين وتعيش فى نهر النيل، وبعضها يموت الميتة الآتى وصفها:

إذا كان التمساح مستلقيا على الأرض، فإن التروخيلوس، — وهو طائر صغير — يحوم حوله أثناء بحثه عن فتات الطعام. ويدغدغ التمساح فى أصداغه دغدغة لذيذة. فيفغر التمساح فاه فيصل الطائر إلى أشداقه. فإذا رأى الفأر البحرى — وهو من فصيلة النمس [2] — فاه التمساح فاغراً دخله، ومزق بطنه ونهش أحشاءه ونفذ خارجا.

ومع جرأة التمساح مع من يفرون منه، فإنه يكون شديد الجبن إن وجد فى مهاجمه جرأة، وهو على الأرض أحد بصراً منه فى

---

(١) هو العيد الذى كان يقام فى ١٤ بابه.

(٢) النمس لا يهلك إلا بيض التماسيح فقط، راجع ديودور الصقلى ك ١ فصل ٣٥ .

الماء ويقال إنه لا يتناول طعاما البتة طوال شهور الشتاء الأربعة [1].

وتعيش أفراس البحر [2] أيضاً فى تلك البلاد ، وهى أكثر حكمة من سائر العجماوات . ولها حوافر مشقوقة مثل الخيول. وأذناب قصيرة ويكفى هنا أن نسوق مثلين على خبثها :

فإن هذا الوحش يعد مأواه بين أعشاب عالية موحلة شديدة الكثافة ، ويتحين فرصة العدو. فى حرص وحذر ، فإذا آنس مزيداً من الأمن خرج ليرعى الحبوب . فإذا ما امتلأ وبدأ آخر الأمر فى الرجوع قفل راجعاً بخطى معكوسة تاركا وراءه آثاراً عديدة لحوافره حتى لا يقتفى الصيادون خط سير واحد واضح فيجدونه ويقتلونه بدون عناء .

وكذلك إذا شعر بالثقل نتيجة لشدة نهمه وامتلاء بطنه ، أدار أفخاذه وقوائمه على غاب حديث الكسر ، فتجرح قوائمه وينساب الدم فيخفف من امتلائه ، ثم يغطى الأجزاء المثلومة بالطين إلى أن تلتئم .

---

(١) كانت السنة مقسمة عند قدماء المصريين إلى ثلاثة فصول هى فصل الحصاد وفصل الشتاء وفصل الصيف وكل فصل منها من أربعة أشهر .

(٢) فى وصف أفراس البحر راجع هيرودوت ك ٢ ، ٧١
وديودور الصقلى ١ ، ٣٥
وبلينيوس ٨ ، ٩٥

وقد رأى الشعب الرومانى لأول مرة هذه الوحوش الغريبة والتى كانت إلى ذاك الحين نادرة ، يوم كان سكاوروس يشغل وظيفة أيديليس [1] (وهو والد سكاوروس الذى كتب توليوس [2] خطبة فى الدفاع عنه حض فيها أهل سردينية على مشاركة العالم كله فى الإحساس بفضل هذه العائلة) وكثيراً ما كانت أفراس البحر تجلب إلى روما طيلة أجيال عديدة بعد هذا التاريخ ، أما الآن فلا يمكن العثور عليها أبداً لأنها — فيما يعتقد سكان هذه البلاد — قد اضطرت إلى الهجرة إلى أرض البلميين [3] إذ أجهدتها كثرة المطاردين .

ومن الطيور المصرية — ولا يمكن حصر عددها — الإيبس

---

(١) هى وظيفة كان يقوم بأعبائها موظفان يتوليان الاشراف على المعابد والمنشئات العامة والأسواق والمهرجانات .

(٢) هو ماركوس توليوس كيكرو (١٠٦ — ٤٣ ق.م) أعظم خطباء الرومان ومن أبرز سياسييهم . وقد بقيت إلى الآن مقطوعات متفرقة من الخطب التى ألقاها فى الدفاع عن ماركوس أيميليوس سكاوروس سنة ٥٤ ق.م. ولابد أن يكون سكاوروس الذى نظم الحفلات التى عرضت فيها أفراس البحر هو نفس سكاوروس الذى تولى كيكرو الدفاع عنه . ذلك أن أباه تولى هذه الوظيفة سنة ١٢٢ ق.م . وكان فقيراً فلم تشتهر الحفلات التى نظمها أما ابنه فقد كان موسراً وأنفق على الحفلات عن سعة فاشتهر بها . هذا إلى أن بلينيوس ك ٨ فقرة ٩٦ يقول « إن ماركوس سكاوروس هو أول من عرض فى روما أفراس البحر مع خمسة تماسيح فى المهرجانات التى نظمها أثناء توليه وظيفة أيديليس » .

(٣) البلميون هم قبائل « البجة » الحالية .

وهو مقدس وأليف ومحبوب لأنه ينقل بيض الحيات إلى أعشاشه ليتخذها طعاماً له ، فيكون بذلك سبباً فى هلاك هذه اللعنات المميتة وندرتها[1] .

وهذه الطيور أيضاً تصطرع مع جحافل الحيات المجنحة — التى تأتى من مستنقعات بلاد العرب وتنتج سموماً خبيثة — وتهزمها فى معارك جوية وتلتهمها قبل أن تغادر حدود بلادها . وسمعنا أن هذه الطيور تضع بيضها من مناقيرها[2] .

وفى مصر مالا يحصى من الحيات التى تبز سائر أنواعها الفتاكة فى ضراوتها . وهى الحيات المكللة والناشر والمستقيمة والرمحية والمعطشة والأفعى وغيرها . والصل تفوقها كلها بكثير فى الحجم والرونق وهى لا تهجر مجرى النيل أبداً من تلقاء نفسها[3] .

---

(١) راجع كيكرو فى كتابه « فى طبيعة الآلهة » ك ١ ، فقرة ٣٦ حيث يقول « فالمصريون وهم مثار السخرية لايقدسون الحيوان إلا لفائدة يجنونها منه . فلابيس (أبومنجل) وهو طائر كبير ذو سيقان قوية ومنقار طويل صلب يهلك عدداً كبيراً من الحيات . فهذه الطيور إذن تحمى مصر من الأمراض الوبائية بقتلها والتهامها للحيات الطائرة التى تجلبها الرياح الجنوبية الغربية من صحراء ليبيا . وهكذا تجنب مصر ويلات لدغاتها وهى حية ، وشر العدوى عند مماتها ، ويمكن أن أتحدث عن فوائد النمس والتمساح والقرد ولكنى أوثر ألا أطيل » .

(٢) راجع أرسطو « الكون والفساد » ك ٣ فقرة ٦ .

(٣) لعل أميانوس قد أساء فهم قول الشاعر لوقانوس (٣٩ — ٦٥ بعد الميلاد) فى ملحمته « فرساليا » ك . ٩ البيت ٧٠٤ وما بعده إذ يقول « فالأفعى لاحتياجها للدفء لاتقصد من تلقاء نفسها إلى منطقة باردة بل تجوب الصحراء إلى حدود النيل فحسب » .

وفى هذه البلاد أشياء كثيرة تستحق عناء زيارتها ، ولا بأس من أن نصف طرفاً منها . فالمعابد الضخمة أقيمت هنا فى كل مكان ، وقد عدت الأهرام من عجائب الدنيا السبع[1] . وقد وصف لنا المؤرخ هيرودوت صعوبة وبطء بنائها[2] . والأهرام أبراج مشيدة تعلو فى ارتفاعها عن كل ما يمكن أن يشيده إنسان . وهى عند القاعدة بالغة الاتساع وتتضاءل فى ارتفاعها إلى قمة مدببة .

وهذا الشكل يسمى الشكل الهرمى عند علماء الهندسة لأنه يتضاءل فى أعلاه على شكل مخروطى مثل شعلة من النار . والنار تسمى فى لغتنا « پير » . وحيث أن الهرم يرتفع إلى علو شاهق فحجمه يقل بالتدريج ، وهى لاتلق بظلها على الأرض طبقاً لنظرية هندسية معروفة[3] .

وهناك أيضاً ممرات جوفية وأقبية متعرجة احتفرها فيما يقولون قوم محنكون فى الطقوس القديمة . وحيث أنهم تكهنوا بحدوث الطوفان وخشوا أن تمحى ذكرى طقوسهم واحتفالاتهم

---

(١) العجائب السبع فى العالم القديم هى : — أهرام الجيزة ، ومعبد الإلهة ديانا فى إفسوس ، وتمثال رودس الهائل ، ومنارة الاسكندرية ومقبرة مولوسوس فى هاليكارناسوس ، وحدائق بابل المعلقة ، وتمثال زيوس فى أوليمبيا .

(٢) راجع هيرودوت ك ٢ ، فقرة ١٢٤

(٣) يعنى عندما تكون الشمس عمودية عليها

فقد احتفروا هذه الأقبية بجهد شديد فى أماكن متفرقة وحتوا فى جدرانها أشكالا كثيرة للطير والحيوان وهم يسمون هذه الأشكال الحروف الهيروغليفية .

وتأتى بعد ذلك مدينة سينى[١] ، وفيها تحيط أشعة الشمس — أثناء الانقلاب الذى تحدد به الشمس مجراها الصيفى — بكل الأشياء العمودية ولا تتيح لها أن تلقى ظلالها خارج نطاق أجسامها[٢] . فنى هذا الوقت إذا ثبت امرؤ عموداً قائماً أو نظر إلى شخص أو شجرة قائمة لوجد أن ظلالها تتلاشى حول نطاقها الخارجى . ويقال إن تلك الظاهرة تحدث أيضاً عند مروى وهى جزء من إيثيوبية واقعة بالقرب من مدار الجدى حيث تقع الظلال مدة تستعين يوماً فى إتجاه مضاد لاتجاهها عندنا ، ومن هنا سمى سكان تلك المنطقة بالاتيسكيين[٣] .

وحيث أن ثمة غرائب كثيرة تخرج عن نطاق كتابى هذا فلا تركها لأصحاب العقول السامية ولا تحدث قليلا فى أقسام البلاد الادارية .

---

(١) هى أسوان الحالية

(٢) يعنى فى وقت الظهر فقط ، وقد كان استرابون أكثر تحديداً إذ يقول ك ١٧ ، فصل ١ فقرة ٤٨ « إن الشمس هناك تكون عمودية رؤوسنا وتجعل المؤشرات غير ذات ظل فى الظهر » .

(٣) الاتيسكيون معناها المضادون للظل .

أقسام مصر الإدارية

من حوادث عام ٣٦٣ ك ٢٢ ، ١٦ ، ١ — ٢٤

كانت مصر فى العصور السابقة مقسمة — فيما يقال — إلى مقاطعات ثلاث : مصر نفسها ، وإقليم طيبه ، وليبيا . وقد أضيفت إليها فى عصور تالية[١] مقاطعتان هما أغسطامنيكا التى اقتطعت من مصر نفسها ، وبنتابوليس التى فصلت عن ليبيا الشديدة الجفاف .

---

(١) لقد قسم أغسطس مصر بعد فتحها إلى ثلاثة أقسام إدارية هى الدلتا ومصر الوسطى وطيبه . فلما اتسعت رقعة الامبراطورية رأى الامبراطور دقلديانوس أنه لابد لتماسك أجزاء الامبراطورية المتباعدة من إحداث ثورة إدارية شاملة تنقص بمقتضاها مساحة الولايات وتندمج فى وحدات إدارية كبرى . وعلى هذا الأساس قسمت مصر من جديد إلى ثلاثة أقسام تقابل هذه الأقسام الثلاثة : الجوفية (نسبة إلى الإله جوبيتر ، وقد كان ينتسب إليه الامبراطور دقلديانوس) ومصر الهرقلية (نسبة إلى الإله هرقل) وطيبه . ولكن هذا التقسيم لم يحقق الأهداف المرجوة منه ، فأدخلت عليه تعديلات كثيرة انفصلت بمقتضاها مصر عن الادارة الشرقية سنة ٣٨٢ وأصبحت وحدة إدارية قائمة بذاتها وانقسمت إلى الأقسام الخمسة التى ذكرها أميانوس .

ولكن الأستاذ أبدريس بل يرى أن هذا التغير وهذا التقسيم الخماسى لم يؤخذ به إلا فى سنة ٥٥٤ عندما أصدر الامبراطور يوستنيانوس مرسومه الثالث عشر ، وقال إن مصر فيما عدا ليبيا قد قسمت فى ذلك الحين إلى أربعة أقسام هى مصر واغسطاميكا واركاديا وطيبه . راجع كتابه « مصر . من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى » ترجمة عبد اللطيف احمد على ومحمد عواد حسين ، ١٩٥٤ ص . ٢٣٨ وما بعدها .

ولإقليم طيبه أن يزهى بمدنه الكثيرة وخاصة بمدينة هرموبوليس[1] وقفط وأنتينوؤس[2] التى أنشأها هادريانوس تكريماً لصديقه أنتينوؤس[3]. أما مدينة طيبه — ذات المائة باب — فليس ثمة من يجهل شهرتها.

وتوجد فى أقليم أغسطامنيكا مدن كثيرة منها مدينة بيلوزيوم[4] الشريفة التى أنشأها — فيما يقال — پيليوس أبو أخيليس الذى أوحت إليه الآلهة أن يتطهر فى البحيرة المتاخمة لأسوار هذه المدينة. وذلك عند ماكانت تطارده أشباح آلهات القدر البشعة بعد أن اغتال أخاه فوكوس[5]. ومنها مدينة كاسيوم[6] التى يوجد بها قبر پومپيوس العظيم، ومدينة

(١) هى الأشمونين الحالية.

(٢) هى قرية الشيخ عباده الآن.

(٣) زار الامبراطور هادريانوس مصر سنة ١٣٠ وكان بصحبته صديقه وصفيه أنتينوؤس الذى غرق فى النيل. وسواء كان غرقه قضاء وقدراً، أو تضحية منه لتحقيق نبوءة العرافين المصريين الذين تكهنوا بأن سعادة الامبراطور لن تتحقق إلا إذا فقد أعز شىء لديه فى مصر، فإن الامبراطور جعل من صفيه الغريق إلهاً محلياً فى المكان الذى غرق فيه. وأغلب الظن أن الامبراطور لم ينشىء المدينة وإنما جملها وشرفها وسماها باسم صديقه.

(٤) هى تل الفرما الآن

(٥) الرواية المعتمدة فى هذه الأسطورة أن أياكوس نفى ابنه پليوس فلجأ إلى إيوريتوس أبى أكتور وهو الذى طهره مما ألم به من رجس

(٦) هى الآن كثيب القلس وقد اغتيل پومپيوس بالقرب منها أثناء هربه من قيصر بعد موقعة فارسليا سنة ٤٨ ق. م.

أوستراكينى[1] ومدينة رينوكولورا[2].

وفى ليبيا ذات المدن الخمس[3] توجد قورينة وهى مدينة عريقة القدم ولكنها الآن مهجورة[4]. وقد أنشأها باتوس الإسبرطى وتوجد أيضا مدينة بطوليمايس[5] ومدينة أرسنوى[6] وتعرف أيضاً باسم تيوخيرا ومدينة دارنيس[7] ومدينة برنيقه[8].

(١) هى الفلوسيات الآن، واوستراكينى تعنى فى اليونانية «الفخارية».

(٢) هى العريش الان، ورينوكولورا تعنى فى اليونانية «مجدوعة الأنف» راجع هيرودوت ك ٢ فقرة ٦٠ فى سبب هذه التسمية.

(٣) المدن الخمس الغربية لا تزال تابعة لسلطة بطريرك الاسكندرية الروحية.

(٤) لقد استعمر الاغريق ساحل إفريقية الشمالى فى أواخر القرن السابع ق. م. وأنشأ زعيم الجالية الاغريقية مدينة قورينة ونصب نفسه ملكاً عليها واتخذ إسم باتوس. وقورينة هى أهم المدن الخمس الغربية وتدل آثارها على مبلغ ضخامتها واتساعها فى الزمن القديم.

(٥) هى طولميته الان وكان اسمها أصلا برقة، وقد غير أحد البطالمة اسمها إلى بطوليمايس.

(٦) إسمها الأصلى تيوخيرا ثم سميت أرسنوى باسم أخت بطليموس الثانى فيلادلفوس (المحب لأخته).

(٧) هى درنة الآن.

(٨) الاسم الأصلى هو هسپيريدس، وقد سميت برنيقه باسم زوج بطليموس الثالث وموقعها الآن مدينة بنغازى. ويذكر پليني فى كتابه «التاريخ الطبيعى» ك ٥، فقرة ٥ هذه المدن الخمس الغربية ولكنه يذكر — بدلا من مدينة درنة — مدينة أبوللونيه وقد كانت فيما مضى ميناء قورينة ولكنها بزتها فى الشهرة وموقعها الآن مرسى سوسه.

وتسمى أيضاً هسپيريديس .

وتوجد فى ليبيا الجافة مدينة پارايتونيوم [١] وخايركار- ومدينة نيابوليس [٢] إلى جانب مدن أخرى قليلة تافهة .

ومصر نفسها التى أصبحت تحكم — منذ أن ضمت إلى الامبراطورية الرومانية — بوساطة ولاة لهم مركز الملوك [٣] ، تمتاز بمدينة أتريبيس [٤] وأوكسيرنخوس [٥] وثمويس [٦] ومنفيس [٧] إلى غيرها من المدن التى تقل عن هذه أهمية .

أما أعظم المدن فى مصر كلها فمدينة الإسكندرية التى شرفتها ظروف كثيرة نخص منها بالذكر عظمة منشئها وبراعة مخططها دينوقراطيس الذى قيل إنه عندما كان بصدد رسم حوائطها الممتدة المنسقة ، قد خطط معالمها بالدقيق لافتقاره إلى الجص الذى

(١) هى مرسى مطروح الان .

(٢) نياپوليس معناها المدينة الجديدة . وأغلب الظن أن هذا هو الاسم الذى أطلق على مدينة لبتيس (لبدا الان) بعد أن خربت سنة ٣٦٦ .

(٣) لقد كان مركز والى مصر مركزاً خطيراً فقد كان فى نظر سكان البلاد خليفة للبطالمة والفراعين من قبلهم .

(٤) هى تل أتريب الآن .

(٥) هى البهنسا الان .

(٦) هى تمى الأمديد الان .

(٧) موقعها الآن ميت رهينة .

لم يمكن الحصول عليه فى تلك الآونة . وقد أبان هذا الفأل على أن المدينة ستكون فيما بعد عامرة بأسباب الخير العميم [١]

وفى إنبيس يكون النسيم عليلا والسماء صافية صاحية ، وما من يوم لا يرى فيه سكانها الشمس ، كما ثبت بالتجربة فى سلسلة طويلة من الأحقاب .

وشاطىء البحر عند الاسكندرية رملى متحرك خطر ، وقد عرض الملاحين فى العصور السابقة لأخطار كثيرة ، ولذلك فقد أقامت كليوباتره [٢] برجاً عالياً فى وسط الماء سمى فاروس باسم البقعة التى أقيم عليها [٣] ، وهو يبعث الضوء ليلا فيهدى السفن

(١) راجع استرابون ١٧ ، ١ حيث يقول « لقد وقعت حادثة عند تخطيط الأساس تروى كفأل حسن لما استتبعته من حسن الطالع فيما بعد ، ذلك أنه عندما كان المهندسون يخططون حد السور بالطباشير ، نفد الطباشير ، وعندما قدم الملك ، أحضر الموظفون قدراً من الشعير الذى كان معداً للعمال وخططت الشوارع به » . وراجع أيضا بلوتارخوس « حياة الاسكندر » ٢٦ ، ٥ حيث يقول « ولقلة الطباشير استخدموا الدقيق الذى طهر تماماً على الأرض السوداء ورسموا به خطاً حول الخليج النصف دائرى أما طرفا نصف الدائرة فقد جعلا مستقيمين حتى أن سطح المدينة كلها كان كالشملة المقدونية » .

(٢) الذى أقام المنارة هو بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ٣٠٨ — ٢٤٦ ق.م. وقد دمرت بعض أجزائها فى حرب الاسكندرية التى قامت بين الجيش الرومانى تحت قيادة يوليوس قيصر وبين الجيوش المصرية سنة ٤٨ ق.م. فلما توطد مركز كليوباتره على العرش أعادت بناءها وترميم أجزائها المتهدمة .

(٣) أقيمت المنارة على جزيرة فاروس وقد بلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم وبلغت مساحة قاعدتها ٨٢ قدما مربعا . وقد ظلت قائمة بعد أن تهدمت منها طبقة فى أثر طبقة إلى حوالى عام ١٤٧٧ عندما أقيمت على أنقاضها قلعة قايتباى .

القادمة من الساحل الشرقى أو من البحر الليبى بحذاء الساحل السهل المنبسط الخالى من أى علامات من جبال أو مدن أو مرتفعات من شأنها أن تهدى الملاحين الذين كثيراً ما كانوا قبل بناء فاروس يرتطمون بالساحل إذ يوغلون فى الرمال الناعمة فلا ينفكون منها .

وهذه الملكة نفسها هى التى ابتنت لسبب ذائع ووجيه جسر الهبتاستاديوم[1] وهو عجب فى حجمه وفى السرعة - التى لا تصدق - التى أنجز بها . ذلك أن جزيرة فاروس (حيث كان پروتيوس - فيما يروى لنا هوميروس[2] فى أسلوبه الرفيع - يزجى فراغه بقطعان من سباع البحر) تبعد عن الشاطىء الذى انشئت عليه مدينة الإسكندرية بحوالى ميل ، فكانت إذن خاضعة لدفع الضريبة لأهل رودس .

فلما جاء جباة هذه الضريبة ذات مرة وغالوا فى طلباتهم ، دعتهم كليوباتره - وقد كانت إمرأة ماكرة - إلى ضواحى المدينة

(١) هو جسر طوله سبعة ستاد كما يدل اسمه ، بنى فى عهد البطالسة الأول وقد كان يبدأ فى الجنوب من « كوم الناضورة » الحالى تقريباً وينتهى فى الشمال فى جنوب جزيرة فاروس بالقرب من شارع «أبو وردة» الحالى . وإن نسبة بناء الهبتاستاديوم والمنارة إلى كليوباترة لتعتبر بداية أسطورة كليوباتره، تلك الأسطورة التى تعزو إليها مسلات الفراعنة وتسميها « إبر كليوباتره » وتعزو إليها قلاع خفر السواحل فتسميها «حمامات كليوباتره» .

(٢) الأوديسية ك ٤ البيت ٤٠٠ وما يليه .

بحجة أن الموسم كان موسم عيد مقدس . وأصدرت أمرها بأن يجرى العمل فى إقامة الجسر بغير توقف . وهكذا كملت الأطوال السبعة فى سبعة أيام ، إذ استخدمت فى إقامة الجسر الرمال من الشاطىء المجاور . وعندئذ قالت الملكة وهى تعبر الجسر فى مركبتها إن أهل رودس يخطئون إذ يطلبون ضريبة ميناء على ماليس بجزيرة بل جزء من الساحل .

هذا وفى المدينة معابد كثيرة سامقة نخص بالذكر منها معبد سيرابيس[1] ومع أن الكلمات لا تفى بوصفه ، فيحق لنا أن نقول إنه - نظراً لأبهائه الفسيحة ذات العمد ، ولتماثيله البديعة ولسائر مافيه من تحف - رائع الزينة حتى ان العالم كله ليس فيه ماهو أولى

(١) كان معبد السيرابيس واقعاً على ربوة مرتفعة إلى الغرب من المدينة ، ومع أنه لم يكن حصناً منيعاً ، فكثيراً ما كان يسمى القلعة . وكان الصعود إلى المعبد من طريقين، أما أولهما فكان منحدراً تستخدمه العربات ، وأما الآخر فكان درجاً مؤلفاً من مائة درجة تؤدى من الطريق العام إلى مدخل المعبد،وكل درجة تزيد اتساعا عن سابقتها . ويوجد فى آخر هذا الدرج بهو ذو سقف دائرى محمول على أربعة أعمدة، ومنه ينفذ الداخل إلى البهو المكشوف الذى تحيط به الأعمدة وهو صحن المعبد وعلى جوانب هذا الصحن الفسيح توجد ردهات طويلة تحف بها الكتب التى جعلت هذا المعبد أكبر المراكز الثقافية فى الاسكندرية . وكان أكبر أساتذة هذه المكتبة فى عصر أميانوس الخطيب أفتونيوس (وعنه أخذنا هذا الوصف) وقد كان من أتباع الوثنية فناظره الفيلسوف المسيحى أيتيوس مناظرة علنية مات بعدها بأسبوع واحد ، وقد كان أهل الاسكندرية يقولون إن حجج أيتيوس لم تقنعه ولكنها قتلته .

بالإعجاب منه سوى الكابيتوليوم [1] الذى تزهى به روما الخالدة.

وفى معبد سيرابيس مكتبات لا تقدر قيمتها، وقد اجتمعت شهادة المؤرخين القدماء على أن السبعمائة ألف مجلد التى كان البطالسة قد جمعوها بحرص وعنـايه قد احرقت فى حرب الاسكندرية عندما خُرّبت المدينة فى عهد الدكتاتور قيصر [2].

---

(١) الكابيتوليوم أحد تلال روما السبعة، وقد كان يتوجه معبد قديم أهدى سنة ٥٠٩ ق.م إلى جوبيتر الأعظم. وظل القناصل يدخلون عليه التحسينات إلى أن التهمته النيران سنة ٨٣ ق.م. فأعاد بناءه لوتاتيوس كاتولوس سنة ٦٩ ق.م. ورممه ونسقه أغسطس مرتين فى ٢٦ ق.م وفى ٩ ق.م ولكن هذا المعبد الأعظم التهمته النيران أيضا سنة ٦٩ بعد الميلاد. وأعاد الامبراطور فسباسيانوس بناءه فأتت عليه النيران من جديد سنة ٨٠ بعد الميـلاد. فأعاد إنشاءه الامبراطور دوميتيانوس سنة ٨٢ بعد الميـلاد وأنفق على بنائه أموالا طائلة حتى جعله آية للناظرين. وقد بقى هذا المعبد إلى سنة ٤٥٥ حين نهبه ودمره البرابرة فى غزوهم لروما. وهذا هو المعبد الذى رآه أميانوس فى روما.

(٢) يخلط ماركيلينوس بين مكتبتين أولاهما مكتبة البروخيون (الحى الملكى) وهى المكتبة التى كانت ملحقة بالمتحف، والأخرى مكتبة معبد السيرابيوم. أما الأولى فقد أنشأها بطليموس الأول (٣٢٢ — ٢٨٣ ق.م) وقد حوت أيام الشاعر كاليماخوس حوالى ٤٩٠٠٠٠ مجلد. أما مكتبة معبد السيرابيوم فقد أنشأها بطليموس الثانى (٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م) ولعلها حوت ٧٠٠٠٠٠ كما يقول أميانوس. فإذا كانت النيران قد امتدت إبان حرب الاسكندرية من الميناء إلى الحى الملكى فهى لن تصيب بالتلف إلا كتب مكتبة المتحف. وأغلب الظن أن المؤرخين يبالغون فى تقدير الخسائر التى لحقت بالمكتبة فى حرب الاسكندرية، فإن استرابون الذى زار مصر بعد حرب الاسكندرية بحوالى ٢٣ سنة رأى المتحف والمكتبة ولم يمسهما سوء (راجع استرابون ١٧، ٨). وليس من سبيل إلى تحديد تاريخ زوال هاتين المكتبتين، ولكن المرجح أن مكتبة المتحف خربت سنة ٢٧٢ بعد الميلاد حينما قمع أورليانوس الثورة التى تزعمها فيرموس وحاصر الثوار وسحقهم فى الحى الملكى أما مكتبة =

وعلى بعد اثنى عشر ميلا من الاسكندرية توجد مدينة كانوبوس [1] التى سميت بحسب القول الشائع باسم سفان مينيلاوس الذى نزل هناك. وهى ضاحية مزدانة على أحسن وجه بالحانات الجميلة، مناخها طيب، ونسيمها منعش، حتى أن ساكن هذه الضاحية ليخيل له حين يسمع حفيف النسيم فى الجو المشمس أنه خارج عن عالمنا هذا.

= معبد السيرابيوم فقد تبددت سنة ٣٩١. ذلك أن الامبراطور ثيودوسيوس الأول أصدر فى سنة ٣٧٩ مرسوماً يقضى بجعل الامبراطورية كاثوليكية، (راجع موسوعة ثيودوسيوس الجزء ١٦، الباب ١، بند ٢) وأمر قواته بالقضاء على الوثنية فى مصر. وكان معبد السيرابيوم معقل الوثنية فى البلاد، فهاجمت قوات الامبراطور يساعدها المسيحيون بزعامة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس واجرى لهم الوثنيون ومات الكثيرون فى المعارك التى انتهت بالقضاء على المعبـد ومكتبته. واضطر الفلاسفة الوثنيون إلى الهرب من الاسكندرية وعلى رأسهم آمونيوس مؤلف كتاب «المترادفات اليونانية» وهيلاديوس مؤلف كتاب «التراجم» الذى استخدمه فيما بعد سويداس فى تأليف معجمه الكبير. وبتدمير المعبد، وتحطيم تماثيله، وتبديد مكتبته، وتشريد فلاسفته، ضاعت شهرة السيرابيوم باعتباره مركزا من مراكز الفكر والثقافة.

(١) كانوبوس فى الأساطير اليونانية هو سفان مينيلاوس عضه ثعبان أثناء رجوعه من طرواده فمات بالقرب من فرع النيل الهرقلى، وصار رب هذه المنطقة وحاميها. وقد طبقت شهرتها الآفاق باعتبارها مركزا من مراكز اللهو وبؤرة من بؤر الفساد، واستمرت تحتل مركز الصدارة بين مدن اللهو والفجور فى العالم اليونانى حوالى ألف سنة من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الرابع بعده، (راجع فى وصفها وأسلوب الحياة فيها هيرودوت ك ٢، ٦٠ واسترابون ١٧، ١٦–١٧) وموقعها الآن كوم سمعدى بالقرب من أبى قير.

ولم تستكمل الإسكندرية زينتها تدريجياً مثل غيرها من المدن[1] بل ازينت منذ انشائها الأول بالطرق الفسيحة ، ولكن بعد أن مزقتها الثورات العنيفة التى استمرت ردحاً طويلا من الزمان ، وعندما انقلبت منازعات أهلها الداخلية إلى صراع فتاك تهدمت أسوارها أخيراً فى عهد الامبراطور أوريليانوس ، وفقدت الاسكندرية الجزء الأكبر من الحى الذى كان يسمى بروخيون والذى كان لأمد طويل مسكناً لمشاهير الرجال .

فهناك عاش أريستارخوس النحوى الشهير[2] ، وهيروديانوس الباحث المدقق فى الفنون الجميلة[3] ، وساكاس أمونيوس[4]

---

(١) يعنى أن الاسكندرية لم تتطور من قرية صغيرة إلى مدينة كبرى ، وإنما خططت على أساس أن تكون عاصمة البلاد منذ إنشائها الأول .

(٢) اريستارخوس النحوى (٢١٠ــ١٤٣ ق.م) ولد فى ساموتراس واشتغل فى الاسكندرية معلماً لابن بطليموس السادس (فيلوميتور ــ المحب لأمه) ثم تولى إدارة مكتبة الاسكندرية (سنة ١٥٣ ق.م) فلما تولى بطليموس الثامن حكم مصر منفرداً سنة ١٤٥ ، ترك مصر إلى قبرس حيث مات ، وكلمة « نحو » هنا تعنى النقد الأدبي بجميع فروعه . وقد بلغ من براعته فى تصحيح النصوص الأدبية أن لقب « بعراف » وذاع صيت منهجه النقدى حتى أصبح أسمه علماً لكل ناقد بصير . وسمته مبانوس بالنحوى ليفرق بينه وبين أريستارخوس الرياضى الفلكى (٣١٠ــ ٢٣٠ ق.م)

(٣) عاش هيروديانوس فى عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ــ٨٠ب.م) ولد فى الاسكندرية للنحوى الشهير أبولونيوس الملقب « بالصعب » وهو أول من أرسى قواعد النحو اليونانى على أسس علمية . أما الابن فقد انصرف عن النحو إلى العروض وألف فيه كتاباً ضخماً من واحد وعشرين جزءاً .

(٤) عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث بعد الميلاد ، ولد لأبوين مسيحيين

أستاذ أفلوطين[1] وغيرهم من الكتاب الكثيريين فى مختلف فروع الأدب ، ونخص بالذكر منهم ديديموس المكنى خالكنتروس[2] الذى اشتهر بما ألف فى فروع كثيرة من العلوم الأدبيـــة .

ولكنه ارتد عن المسيحية إلى الوثنية اليونانية . وكانت قاعات محاضراته حافلة بنوابغ الطلاب ومنهم أوريجين وهو من أقطاب الأفلاطونية الحديثة كما تتلمذ عليه أفلوطين من سنة ٣٢ م إلى سنة ٤٢ م .

وقد آثر أمونيوس أن تبقى تعاليمه سراً بينه وبين تلاميذه فلم يدون من فلسفته شيئاً .

(١) أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠) هو أكبر فلاسفة الأفلاطونية الجديدة . ولد فيما يقال فى مدينة أسيوط وتتلمذ على أمونيوس احدى عشرة سنة ثم رحل إلى روما واستقر فيها وأنشأ هناك حلبة أدبية ضمت رجال العلم ورجال العمل ، وألقى فيها محاضرات متنوعة جمعها تلميذه فورفوريوس فى ستة مجلدات ، كل منها فى تسعة أبواب ومن هنا سميت « بالتاسوعات » . وكان يفسر الكون على أنه درجات صاعدة أولها المادة ثم النفس ثم العقل ثم الله . وهو عنده مجرد لا صورة له ولا مادة . أما العالم فهو عنده من خلق النفس وليس له وجود حقيقى . وليست المادة إلا الإطار الذى تشكل فيه النفس صورها .

(٢) ديديموس (٨٠ ــ ١٠ ق . م) وهو المكنى بخالكنتروس (أى ذو الأحشاء البرونزية) كان من أتباع مدرسة اريستارخوس الأدبيـــة فى الاسكندرية وأصبح معلما فيها ، وهو كثير الاطلاع كثير التأليف حتى لقد قيل انه ألف ٣٥٠٠ كتاباً . وإن أهميته فى تاريخ الأدب لترجع إلى حرصه ودقته فى جمع الشروح والحواشى على الكتاب القدماء ، وإلى همته فى حفظ تراث مدرسة الاسكندرية الأدبي .

أما نشاطه فقد انصرف إلى متابعة نقد أريستارخوس للشعر الهومرى وإلى كتابة التراجم الطويلة لكبار كتاب اليونان وإلى العناية بنشر المعاجم للألفاظ الشعرية والاستعارات والمجازات والأمثال . ولم يقصر اهتمامه على الأدب اليونانى فكتب فى نحو اللغة اللاتينية وكتب هذا الكتاب الذى هاجم فيه كيكرو .

ولكنه لقى آثار الهجائين المقذعين فى كتبه الستة التى هاجم فيها كيكيرو عن خطأ أحياناً فاستحق لوم اللائمين من الأدباء فكان كأنه الجرو ينبح من مسافة بعيدة بصوت خافت ضد زئير الأسد المدوى .

وقد كان يوجد فى الاسكندرية إلى جانب من ذكرنا الكثيرون من مشاهير الرجال فى العصور القديمة ، وهى إلى الآن زاخرة بالعلم الوفير ، ففيها أساتذة عظام فى مختلف المدارس الفكرية ، وفيها ضروب كثيرة من المعارف الخفية التى تعتمد فى تفسيرها على العلوم الهندسية ، ولم يذو فيها فن الموسيقى ولا علم الألحان[1] أما رصد حركات الكواكب والنجوم فلا يزال حياً فى الاسكندرية وإنما يمارسه القليلون ، فى حين أن عدد العلماء الرياضيين ضخم . وإلى جانب هؤلاء توجد فئة ضئيلة بارعة فى العرافة .

أما الطب وقد أصبحت الحاجة إليه دائمة فى حياتنا الراهنة المترفة المسرفة ، فدراسته مطردة فى حماسة تزيد يوماً عن يوم

(١) جاء فى رسالة يوليانوس ٥٦ أنه أوصى الوالى إكديكيوس بأن ينشىء معهداً للموسيقى للنابهين من الشبان وبخاصة تلاميذ الموسيقى الكبير ديوسقوروس ، وأنه وقف على المعهد أموالا طائلة . كما جاء فى الرسالة ١٤ أنه استقدم إلى الاسكندرية الفيلسوف الطبيعى زينو الذى كان قد هرب منها من ضغط أنصار أسقف الاسكندرية جيورجيوس .

حتى أنه ليكفى فى تزكية أى طبيب أن يكون قادراً أن يقول أنه تعلم فى الاسكندرية ، هذا مع أن تعاطى الطب فى حد ذاته يفضل أى فضل ، ولكننى أكتفى بهذا القدر من هذا الموضوع .

وإذا هوى أحد أن يتوفر على دراسة المؤلفات العديدة فى معرفة الله ، ومنشأ التكهن فسوف يجد أن العلم فى هذا الباب قد نشأ فى مصر وانتقل منها إلى العالم كله .

فقد وصل العلماء هناك قبل سائر الناس بوقت طويل إلى معرفة مهاد الأديان المختلفة ـ إن جاز هذا التعبير ـ وهم يتبعون فى دقة أصول العبادات الأولى كما وردت فى الكتب الدينية .

وقد تمكن فيثاغوراس[1] من هذه الحكمة ، وكان يعظم الآلهة سراً ، وجعل كل أقواله أو معتقداته أصولاً مقررة ، وكثيراً ما أبان عن فخذه الذهبية فى أوليمبيا ، وكان يُرى من حين إلى حين يتحدث إلى نسر .

(١) فيلسوف يونانى شهير ولد فى جزيرة ساموس حوالى ٥٨٠ ق . م . وقال ديودور الصقلى ك ١ ، ٩٨ « تعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب ، وحلول الروح فى أنواع الحيوانات المختلفة » وكان فيثاغوراس يدعى أنه يذكر الأجسام التى حلت فيها روحه قبل أن تحل فى جسمه .

وهنا تكهن أناكساجوراس [1] بسقوط وابل من الحجارة من السماء ، وتنبأ ـ بفحص طين بئر ـ بحدوث هزات أرضية . وقد استعان صولون [2] أيضاً بآراء كهنة المصريين فاستن القوانين وفق شريعة الحق وبذلك هيأ للقانون الرومانى أيضاً أعظم دعائمه [3] . ومن هذه المصادر نهل أفلاطون [4] الذى حلق فى آفاق الفكر العليا ، وجارى چوپيتر فى روعة أسلوبه وأبلى بعد زيارته لمصر بلاء حسناً فى ميدان الحكمة .

---

(١) أناكساجوراس ٥٠٠ — ٤٢٨ ق . م . هو أول من استقر فى أثينا من الفلاسفة . وكان صديقاً للسياسى الكبير بريكليس فتعرض لسخط أعدائه السياسيين الذين اتهموه بالكفر ففر من أثينا إلى لامبساكوس . وقد تأثرت آراؤه الفلكية — وهى مصدر اتهامه بالكفر — بظاهرة سقوط النيازك بالقرب من أيجوسبوتاموس (أى نهر الجدى) فى تراقيا سنة ٤٦٨ ق . م . ولكنه لم يتكهن بسقوطها . ولا نعرف مصدراً آخر يذهب إلى أنه زار مصر . وأغلب الظن أن اقتران اسمه بمصر كان نتيجة لبحوثه فى أسباب فيضان النيل (راجع ديودور الصقلى ك ١ ، ٣٨)

(٢) صولون (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق . م) مشرع أثينى ، حكم فى أثينا سنة ٥٩٤ ق . م . ويكاد يجمع المؤرخون القدماء على أنه تأثر بالقانون المصرى فى وضعه للتشريع اليونانى . راجع هيرودوت ك ٢ ، ١٧٧ ، وديودور الصقلى ك ١ ، ٩٨

(٣) لعله يعنى أن اللجنة التى تألفت سنة ٤٥٠ ق . م . لوضع أسس القانون الرومانى والتى ظهرت نتائجها فى الألواح الاثنى عشر قد تأثرت بآراء صولون القانونية .

(٤) ذكر ديودور الصقلى ك ١ ، ٩٦ أن أفلاطون زار مصر . وقال استرابون ك ١٧ ، ٢٩ إنه رأى فى هليوبوليس (المطرية الآن) مدرسة أفلاطون ، وأنه أمضى فى صحبة الكهنة المصريين ثلاثة عشر عاماً .

أما أهل مصر ففى الأعم سمر وسود وأميل إلى التجهم ، نحاف أشداء ، سريعو الغضب فى كل أطوارهم مشاكسون وشديدو المثابرة . وإن الواحد منهم ليحمر خجلا إن لم يكشف عن آثار كثيرة للسياط على جسمه بعد أن يرفض دفع الضرائب ولم يتمكن الناس إلى الآن من معرفة ضرب من ضروب التعذيب يكفى لأن يضطر لصاً عانياً من لصوص هذه البلاد لأن يدلى قسراً باسمه .

ومن الحقائق المعروفة كما يتبين من الحوليات القديمة أن مصر كلها كانت فيما مضى خاضعة لملوك من أجدادهم المصريين . ولكن بعد أن هزم أنطونيوس وكليوباتره فى موقعة بحرية عند أكتيوم وقعت مصر فى حوزة أكتاڤيوس أغسطس وأصبحت ولاية رومانية . وقد حصلنا على ليبيا الجافة بمقتضى وصية الملك أپيون وأخذنا قورينه مع سائر مدن پنتاپوليس الليبية بفضل أريحية بطليموس [44] .

وبعد هذا الاستطراد الطويل : أعود الآن إلى جادة حديثى فى تاريخ الامبراطورية الرومانية .

---

(٤٤) لما مات بطليموس السابع (الصالح الثانى) خلف من الذكور ابنين شرعيين هما بطليموس وبطليموس اسكندر وابنا غير شرعى هو بطليموس أپيون وأوصى بأن يرث هذا عرش قورينة . فلما مات بطليموس أپيون سنة ٩٦ ق.م أوصى بمملكته للشعب الرومانى . ولكن الشعب الرومانى لم يجعلها ولاية رومانية بالفعل إلا سنة ٧٤ ق.م وهو إذن شخص واحد لا شخصين كما ظن المؤرخ .

لحق (١)

أسماء المدن

المدن المصرية التى وردت فى الكتاب	الصفحة	إسم الموقع الآن
أيدوس	٣٠،٤١	العرابة المدفونة
اتريبيس	٨٣	تل أتريب بالقرب من بنها
أرسنوى	٨١	تيوخيرا
اسكندرية	٦،٢١،٢٢، ٣٣،٥١،٦١، ٦٢،٨٢ - ٩١	الاسكندرية
اكسيرنخوس	٨٢	البهنسا
أنتينوؤس	٨٠	الشيخ عباده
إنبيس	٨٢	ضاحية للاسكندرية
أوستراكينى	٨١	الفيلوسيات
پارايتونيوم	٨٢	مرسى مطروح
برنيقه	٨١	بنى غازى
بطوليمايس	٨١	طولميته
بوكاليس	٢٣ ، ٣٣	ضاحية للاسكندرية بالقرب من الشاطى
پيلوزيوم	٨٠	تل الفرما
تيوخيرا	٨١	تيوخيرا
ثمويس	٨٢	تمى الأمديد
خاركلا	٨٢	؟

المدن المصرية التى وردت فى الكتاب	الصفحة	إسم الموقع الآن
دارنيس	٨١	درنة
رينوكولورا	٨١	العريش
سينى	٧٨	اسوان
طيبه	٤٦،٨٠	الأقصر
كوپتوس	٨٠	قفط
قورينة	٨١	غرينه
كاسيوم	٨٠	كثيب القلس
كانوبوس	٢١،٨٧	كوم سمدى بالقرب من أبى قير
منفيس	٢٢،٦٦،٨٢	ميت رهينة
نياپوليس	٨١	ليبدا
هرموبوليس	٨٠	الأشمونين
هسپريديس	٨٢	بنى غازى
هليوبوليس	٥٤،٥٥	المطرية

ملحق (٢)

الآلهة والحيوان المقدس

الآلهة والحيوان المقدس	صفحة	مايقابلها فى المصرية القديمة
أبوللو	٥٤، ٥٥، ٥٦	حورس
أبيس (عجل)	٣١، ٦٥	بتاح
إبيس (طائر)	٧٥	تحوت
آريس	٢٦، ٥٤	ست
امون	٥٦	آمون
بقره	٦٦	هاتور، نفتيس
تمساح	٧٢، ٧٣	سبك
سلينى	٦٥	إيزيس
شمس	٥٤، ٦٥	رع آتوم
صقر	٥٠	حورس
فأر برى	٧٢	أوتو
قمر	٦٥	إيزيس
نسر	٥٠، ٩١	موت
منيفيس (عجل)	٦٥	رع
هيرون	٥٤	حورس
هيفايستوس	٥٦	رع آتوم
نمس	٧٣	أوتو

فهـــرس

دار الكتاب المصري
٨٢ شارع القصر العيني ت ٣٦٥٨٨